



٣٠

محمد صالح البلېشي



من منشورات نادى المدينه المنوره الادبى

حروف في الرماد

مجموعة قصصية

تأليف

محمد صالح البلبيشي

الطبعة الأولى - ١٤٠٢ هـ

من منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي - Sarmed- Twitter: @sarmed74

قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسومات الفنية

محمد عبد الرحمن اسيام

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

تقديم

بقلم

الأستاذ عبد العزيز الربيع

لعل من أجل اللحظات فى حياة الأديب تلك التى يشهد فيها ميلاد أديب. وقد أتيج لى أن أشهد ميلاد هذا الأديب الذى يسعدني أن أقدمه للناس فى هذه الثمرة الأولى من ثماره التى ما أشك فى أنها فاتحة خير لثمار أخرى متنوعة ولن يطول الانتظار بالقراء فعندما يصل كتابه هذا لأيديهم يكون كتابه الثانى قد وصل إلى المطبعة أو أنه فى طريقه إليها.

وإذا كان الشاعر العربى الكبير أبو تمام قد تحدث عن فرحة الأديب بالأديب لما بينها من وشائج الحب وروابط الأخاء وما يجمعها من تعلق بالمثل العليا والقيم السامية وإيمان بالخير والحق والجمال فإن فرحة الأديب بميلاد الأديب فرحة من نوع فريد لأنه يرى فى هذا الميلاد دعماً لرسالة الأدب وإخصاباً لشجرة الحب وإثراء لقدسية الكلمة.

لقد كان من حظى أن أشهد ميلاد هذا الأديب وأن أتابع تدرجه فى مراحل المختلفة وأن ألس عن كشب هذه الشرارة التى اندفعت إلى نفسه فعملت عملها فى كيانه.. عنيت بها شرارة الحب والمعرفة وهى شرارة متى ماتمكنت من إنسان جعلته فى شوق إلى المعرفة لا يهدأ ولا يستكين.

وهذا ما حدث بالنسبة لأدينا الذى أقدمه إلى القراء فقد تسلطت عليه هذه الشرارة المقدسة فجعلته فى شوق إلى المعرفة لا يهدأ ولست أعنى المعرفة فى دنيا الكتب ولكننى أعنى المعرفة فى شتى مجالاتها.. دنيا الكتب ودنيا الناس وذلك ماسيراه القراء حين يطلعون على فصول هذا الكتاب.

والأديب الحق هو الذى لا ينشغل بدنيا الكتب عن دنيا الناس بل يعيش أحداث

أتمته يرقبها بعين واعية وينفعل بما يسمع ويشاهد ثم يصور كل ذلك بقلمه وبيانه يشخص الداء ويقترح الدواء ينشر الخير ويحارب التشاؤم ويدعو إلى الحب والجمال والفضيلة.

وهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم مجموعة مقالات كتبها المؤلف فى فترات متفرقة أو كما يقول المؤلف فى كلمة الإهداء (إن هذه القصص بعض مما هئت وراء جمعه.. من قصاصات الصحف والمجلات التى عشت معها وبها هذه التجربة.. وقد فقدت منها الشيء الكثير مع الأسف لأننى ماكنت أهتم بحفظ هذه القصص ولا كنت أحفظ لها صوراً لدى... كنت أعيش معها لحظة من اللحظات ثم تنتهى بما فيها...

وكننت لا أواصل الكتابة فى هذا المجال بل ربما تمضى شهور وشهور ثم أعيش مع تجربة ما... أو تصور... أو اندفاع نحو هدف معين فأتحفز وأعاود الكتابة من جديد.

يقول المؤلف لقد كتبها الآن بأسلوبها الذى سبق أن كننت به أصلاً بلا تغيير وقد كننت الكثير منها فى مرحلة يسميها علماء النفس مرحلة (المراهقة).

لقد قلت إن هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبها المؤلف فى فترات متفرقة أما المؤلف فيقول: إن هذه القصص بعض مما هئت وراء جمعه ففى رأى المؤلف أن ماحواه كتابه مجموعة من القصص وبعض مما حواه كتابه تنطبق عليه شروط القصة القصيرة كما اصطلاح علي ذلك نقاد القصة. ولكن بعضه الآخر لا يخضع لتلك الشروط. ومع ذلك فأنا مع المؤلف فى اعتبار كل ما فى الكتاب قصصاً لأننى لا أؤيد إخضاع جميع كتاب القصة القصيرة إخضاعاً تاماً لهذه القيود الصارمة التى أقرها النقاد أو اصطلاحوا عليها فلا ضير من أن يكون لكتاب القصة قليل أو كثير من الحرية ماداموا قادرين على أن يصلوا بنا إلى الأهداف المطلوبة بعيداً عن اشتراطات النقاد وقيودهم الصارمة.

وحسب القارئ أن يأخذ فى قراره هذه المجموعة التى تبدأ بقصة (مهاجر النبى) وتنتهى بقصة (الحصاد) ليجد نفسه مدفوعاً برغبة لا تقاوم فى قراءة قصة وراء أخرى حتى يأتى على آخرها. وحسب الكاتب نجاحاً أن يفتح شهية القارئ فيقبل على ماقدمه إليه برغبة ملحّة وشوق كبير دون تفريق بين لون ولون وصنف وصنف. ومن الغريب أن ماتضمنته بعض القصص من معلومات لا حديد فيها ومع ذلك فأنا واثق من أن القراء سيستمتعون بها كما استمتعت وسيجدون لها مذاقاً خاصاً. وتلك ميزة يتمتع بها قلة نادرة من الكتاب وذلك يذكرنى بحديث أسبوعى أحب الاستماع إليه من إحدى المحطات الأوروبية وكننت أسأل نفسى بعد الاستماع إلى هذا الحديث عما إذا كان قد أضاف

جديداً إلى معلوماتي وكان الجواب في ٩٥ في المائة من الحالات بالنفي. ومع ذلك فانا
مشدود إليه حريص على ألا يفوتني.

والحديث عن هذه الميزة يجرنى إلى الحديث عن أسلوب الكاتب في مجموعته
القصصية وأسلوبه يمتاز بالعفوية والبساطة وإن كان يتألق أحياناً تألقاً ليس مصدره محاولة
التجديد والرغبة في التنسيق وإنما مصدره الانفعال ومالدى الكاتب من ثقافة لغوية
وذخيرة بيانية لم يولها الكاتب اهتمامه وعنايته في تلك السن التي كتب فيها المؤلف
قصصه وهي مرحلة المراهقة كما سبق أن أشرنا. وقد حرص الكاتب على أن ينشر قصصه
كما كتبها أول مرة دون أن يعمل فيها يد التجديد والتحسين والتنقيح وحسنا فعل فهي قد
نشرت في الصحف بهذه الصورة ثم أن نشرها في كتاب بالشكل نفسه يعطى صورة
حقيقية للمرحلة الأولى من حياة الكاتب ولذلك أهمية دون شك.

ومع أن ما احتوته هذه المجموعة من قصص لم يكتب في فترة واحدة وإنما كتب في
أزمان متفرقة وتحت ظروف متباينة فإن القارئ الداعى الحضيف يشعر بأن هناك رباطاً
يربطها جميعاً أو بتعبير أدق فإن هناك سلسلة مكونة من عدة حلقات تدور في إطارها
هذه القصص. وهذه الحلقات هي الصدق والحب والإيمان بالقيم يلمس ذلك القارئ
الحضيف الواعى فلن يجد في هذه المجموعة تصنعاً أو افتعالاً وإنما هو الصدق يلف كل
قصص هذه المجموعة ومن المؤكد أن وراء هذا الصدق عنصراً خلافاً عنيت به عنصر
الحب وهو أمر واضح كل الوضوح سواء أكان ذلك في القصص التاريخية التي بدأ بها
الكاتب مجموعته أم في القصص الاجتماعية التالية. ولن أتحدث عن الحب وما يصنعه
من أعاجيب فحسبي أن أشير إلى ذلك في هذه المقدمة لأذكر الحلقة وهي الإيمان بالقيم
السامية وتمجيدها والحرص عليها والدفاع عنها والدعوة إليها وتعميقها في وجدان الناس
ولا يتسع المجال للتفصيل والتطبيق والشرح.

وعلى أية حال فليست هذه المقدمة دراسة لقصص هذه المجموعة ولكنها تسجيل
للانطباع الذي خرجت به من قراءتها. ثم أنها قبل ذلك وبعد ذلك ترحيب بأديب
شهدت مولده وأعجبت بخطواته التي خطاها في عالم الفكر بنقطة وإيمان. إنه الأخ والإبن
الأستاذ محمد صالح البليشى.

وكل ما أرجوه فى هذه المناسبة ألا تنجى الصحافة على أدبه فكم لها من جنائات على
الأدب والأدباء.

عبد العزيز الربيع
رئيس النادى الأدبى



المقدمة

المقدمة

ولدى العزيز : ..

ها أنا أرى الوقت قد حان ... لأتحرراً .. وأقدم لك و.... هذه.... التى
هى فى واقعها لا تزيد عن كونها مرحلة.... من مراحل حياتى مع الكلمة...
إن هذه القصص بعض مما مألشت وراء تجميعه... من قصاصات الصحف
والمجلات التى عشت معها وبها هذه التجربة... وقد فقدت منها الشئ الكثير
مع الأسف لأننى ماكنت أهتم بحفظ هذه القصص ولا كنت أحفظ لها صوراً
لدى... كنت أعيش معها لحظة من اللحظات ثم تنتهى بما فيها....

وكنت لا أواصل الكتابة فى هذا المجال... بل ربما تمضي شهور وشهور ثم
أعيش مع تجربة ما... أو تصور... أو اندفاع نحو هدف معين... فأتحفز وأعاود
الكتابة من جديد... ولهذا قد ترى اختلافاً كبيراً بين قصة وأخرى وأسلوب
وأخر... ولكن الطابع العام... هو ماتراه موحداً بينها...

وما أريد قوله هنا أننى لم أفكر فى يوم ما أننى أجمعها... أو أجمع بعضها فى
كتاب كهذا ولكن إلحاح بعض الزملاء المخلصين كلفنى الكثير فى البحث عنها
ومحاولة جمع ما وجدت منها...

لقد كتبتها الآن بأسلوبها الذى سبق أن كتبت به أصلاً بلا تغيير... وقد
كتبت الكثير منها فى مرحلة يسميها علم النفس مرحلة المراهقة وعندما أعدت
فيها النظر لإخراجها فى هذا الكتاب رأيت أن أبقيا كما هى لأنها تحكى
مراحل عدة فى حياتى خلال سنوات قد تزيد على خمسة عشر عاماً من
الزمن.... وبالبينى كنت محتفظاً بكل ما كتبت فى هذا المجال ومسجلاً تاريخ
كل قصة... لو كان هذا لأمكنك يابنى... معرفة الكثير مما تود معرفته عن
تجربتي مع الكلمة فى المجال القصصى.

ولدى العزىز :

أقدم هذا الكتيب بما فيه... أقدم لك ولأقرانك راجياً أن تستفيدوا منه...
وهذا رجاء إن تحقق وكان مابه فى مستوى الإفادة فهذا مبتغى وإن كانت
السانية فلا لوم على لأن اللوم عليهم... أولئك الأصدقاء الذين ألقوا وأتعبونى
فى البحث عن الماضى بما فيه من غث وسمين.... وعليهم أن يتحملوا أوزارهم
وأنا من ذلك براء..

المؤلف

المدينة الخالدة

المدينة الخالدة

المدينة المنورة .. هذا الاسم الذى يحتل أعماق كل نفس مسلمة ويسيطر على شعور وإحساس كل قلب فيه بصيص من نور الإيمان. هذا الاسم الذى اقترن بالبطولات والتضحية والفداء واقتن كذلك بالحب والتسامح والطيبة والرقّة والعدوّة هنا فى هذا الموقع من العالم مشى رسول الله صفوة خلق الله أجمعين صلى الله عليه وسلم وفى هذا المكان تربى الرعيل الأول من صحابته الكرام رضى الله عنهم أجمعين.. إن كل شبر فى مهاجر رسول الله ينطق بتاريخ حافل وبطولة فذة من البطولات الإسلامية.

كل شبر فى المدينة لو قدر له أن يتكلم لقال تاريخ الحياة للبشرية جمعاء وبعدها تشرف بتقبيل أقدام سيد الخلق وأقدام أولئك الأصحاب الغر الميامين الذين كانوا مثلاً لكل معنى من معانى التضحية والفداء، إن كل رقعة فى طيبة الطيبة يشع نورها إلى عنان السماء قد اكتسبت من أنوار سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام شعاعاً ساطعاً يتعمق إلى أغوار كل نفس ويضئ جنبات كل قلب ينبض باليقين ويؤمن برسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم..

لقد اختارها الله مهاجراً لرسوله وشرفها باستقباله ونصرته فخرجت منها جحافل الجيوش الإسلامية فاتحة منتصرة فى كل وقت ترفع راية للإسلام وتدعو إلى السلام وتخرج من الظلمات إلى النور.. وفى قدوم رسول الله كانت حياتها وكانت انطلاقاتها التى بهرت الناس بعد أن عاشت ماضياً أسوداً كثيباً وحياة مكفهرة قاتمة طحنتها الحروب والعداوة والبغضاء.

لقد عاشت المدينة المنورة قبل هجرة الرسول إليها فى حروب طاحنة.. القلق يسيطر عليها والحياة فيها قد خضبت بالدماء والمشاحنات على أشدها بين الأوس

والخزرج (بنى قيلة) ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو من كهلان سبأ ملوك اليمن.. ان نار الحرب ماكانت بينها ولا ثورة الخلاف تهدأ وكانت بينها أيام وحروب حتى كان يوم بعثت الذي قد أفنى رؤساء القبائل وزعماء العشائر حالفت بعدها الخزرج اليهود مدبرى هذه الحروب والساعين وراءها وأخذت الأوس تبحث عن حليف لها على بنى عمهم الخزرج.. انها الفرقة بين أبناء العم والعداء والمكيدة من اليهود إذ لا يكاد يمر يوم إلا وتشهد يشرب صوت مستغيث أو صراخ متلهف أو زججرة معقد أثيم فالظلم ضارب أطنابه والحقد والبغضاء صارت أمراضاً مزمنة فى النفوس ولذلك كانت تتور لأتفه الأسباب فتقع الحروب ويزداد لهيب الحياة فيها صخباً وكآبة حتى أراد الله لهذه الأرض الحياة الوداعة المطمئنة باختيارها مهاجراً لنبيه عليه الصلاة والسلام.

فى غمرة ماتعيشه يشرب من أحداث وأحلاف وشحناء وفد على مكة نفر من الخزرج فلقىهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليهم الإسلام فقال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله أنه للنبي الذى توعدكم به اليهود فلايسبقنكم إليه فلقى من نفوسهم استجابة وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك وسرى نسيم الدعوة وذكر محمد إلى كل بيت فى المدينة واستبشر الرسول لما علم بذلك بعد أن ذاق وأصحابه من قريش كل ألوان الأذى وبعد أن دعا كل القبائل المحيطة بمكة وأعلنها فى ثقيف وكنده وفى بنى عامر وبنى حنيفة فلم يكونوا خيراً من قريش رأياً ولا أقل منهم صدأ وإعراضاً.

ومضى عام وترقب رسول الله الموسم وإذا إثنا عشر رجلاً يفدون مسلمين لدعوته إثنان من الأوس وعشرة من الخزرج وأعلنوا إسلامهم وبايعوا رسول الله ووعدهم اللقاء فى العام القادم وأرسل معهم الصحابى الجليل مصعب بن عمير يفقههم فى الدين ويقرؤهم القرآن ويعلمهم قواعد الإسلام...

وصل مصعب بن عمير ومن معه المدينة وبذل جهده فى تعليم الناس قواعد الدين ووجدت الدعوة من النفوس فى المدينة مكاناً خصباً وذابت الكثير من الأضغان والأحقاد حتى كان العام المقبل فوفد على مكة فيمن وفد سبعون رجلاً وامرأتان من مسلمى الأوس والخزرج وعلم الرسول بقدمهم فواعدهم العقبة ولما كان الموعد ومضى



من الليل ثلثه خرجوا من رحلهم مستخفين وأقبل رسول الله و معه العباس بن عبد المطلب وكان اجتماع بينهم فى الشعب عند العقبة فقال العباس: يامعشر الخزرج: إن محمداً منا حيث قد علمتهم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى قوة من قومه ومنعة فى بلده وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده.

فقالوا : قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت فتكلم رسول الله وتلا القرآن ودعا إلى الله ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فقام البراء بن معرور وقال: نعم فوالذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر وقال أحدهم يامعشر الخزرج هل تدرون على ماتبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس واعترض أبو الهيثم فقال يارسول الله: إن بيننا وبين اليهود حبالاً وأنا قاطعوها فهل عسيت أن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟؟ فتبسم رسول الله ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ثم قال لهم اخرجوا إلى منكم إثني عشر نقيباً ولما انتخبوا نقباءهم قال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحوارين لعيسى وأنا كفيل على قومي.. وتمت بيعة العقبة وشاع أمرها فى مكة فزاد طغيان قريش وكبر ياؤها وأذاها لمحمد وأصحابه واشتد الأذى وزادت المحنة ولما رأى الرسول مايتعرض إليه أصحابه من محنة وفتنة أذن لهم بالهجرة إلى المدينة.

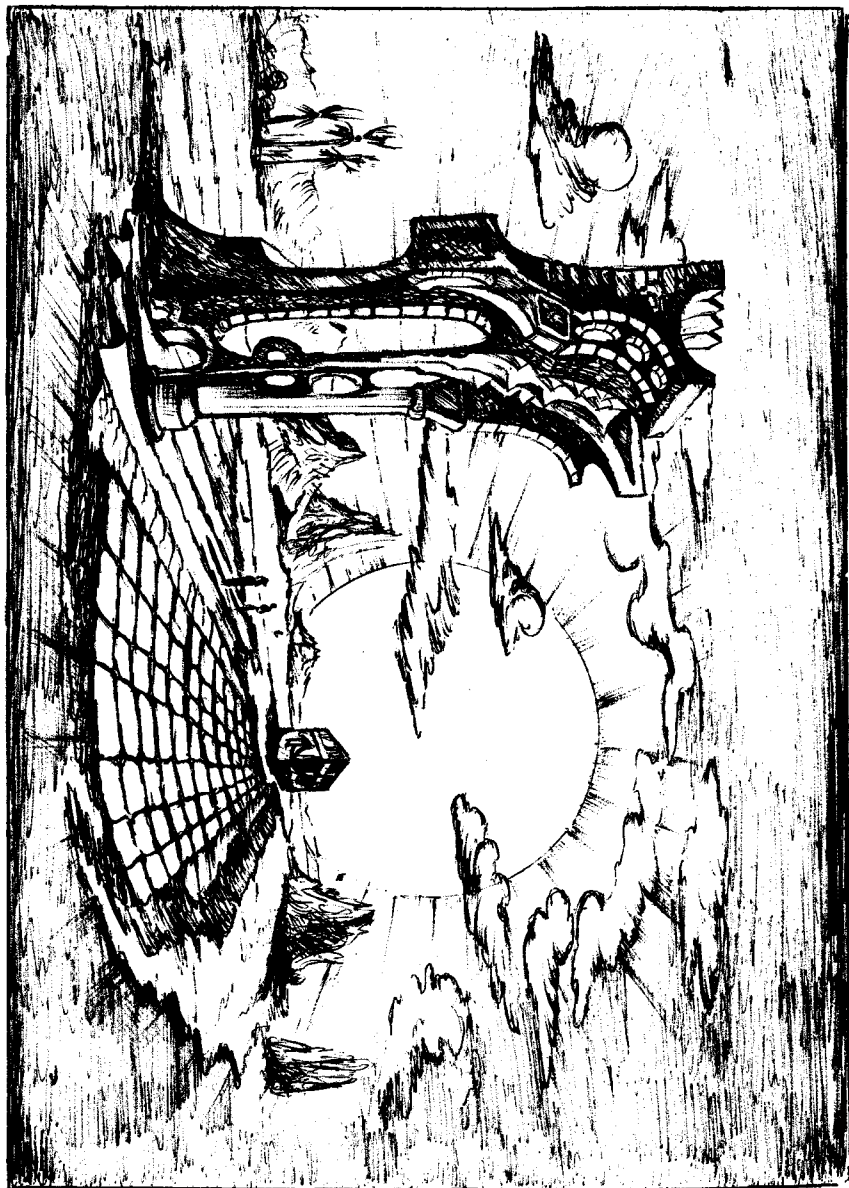
أذن الله لنبيه عليه الصلاة والسلام فى الهجرة من دار الكفر والطغيان إلى يشرب، تلك المدينة التى استقبلت الدعوة الإسلامية بقلوب متفتحة للإيمان ونفوس راغبة فى التضحية.. وأثناء عزم الرسول على الهجرة إلى المدينة كان تأمر الكفار واجتماعهم فى دار الندوة ذلك الاجتماع الذى قرروا فيه قتل محمد صلى الله عليه وسلم بطريقة مأمونة العاقبة بحيث لا تستطيع بنو هاشم أن تقاتل العرب جميعاً فيرضون بالدية فأوحى سبحانه وتعالى لنبيه بما دبر وكانت الهجرة التى اختار فيها

النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر لصحبته.. حيث خرج الوفد النبوي المكون من النبي وصاحبه أبا بكر من مكة ليلاً واتجه نحو غار ثور وتحصن فيه ومما لاشك فيه أنه وفد محروس مظفر كما طمأن بذلك رسول الله صاحبه حين رأى قريشاً وقال لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال له النبي: لا تخف يا أبا بكر مابالك باثنين الله ثالثهما وفي خضم بحث قريش عن هذا الوفد وإغرائهم بمائة ألف ناقة لمن جاء به حياً أو ميتاً.. فى هذا الخضم الخطير كان بيت الصديق يموله بانتظام حيث يعى عامر بن فهيرة مولى أبوبكر غنمه ويقدم لهم من اللبن مايكفى وكان عبد الله بن أبا بكر يبيت مع الوفد ويدلج فى الظلام قبل الفجر ويصبح فى مكة وبين قريش ليحفظ ويعى كل ماتقوله وتدبره قريش.. وفى ثالث يوم فى الغار جاء عبد الله بن الأريقط من بنى الديل وهو مشرك استأجروه لمعرفة الطرق جاءهم بالرواحل وسلك الوفد المحفوف برعاية الله طريق الساحل من عسفان ثم نزل من قديد حتى سلك القاحة فالغابر فبطن وادى ريم ثم قباء حيث كان المسلمون ينتظرونه يوماً حتى يردهم حر الهاجرة وفى يوم الإثنين من شهر ربيع الأول وبعد أن عاد المسلمون إلى منازلهم من الحر وقف يهودى على اطم لهم فرأى رسول الله وأصحابه فى ثيابهم البيض يرفعهم السراب فلم يملك نفسه حتى صاح يا معشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه فثار المسلمون إلى سلاحهم وتلقوه بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل فى بنى عمرو بن عوف بقباء ونزل تحت شجر فى بستان عند بئر غرس بغربى مكان مسجد قباء الآن وصار يبيت فى دار سعد بن خيثمة ويقيم فى دار كلثوم بن الهدم.

وفرحت المدينة كلها بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها.. لقد سطع ضياؤها وتألقت حياتها واختفت البغضاء والعداوة من النفوس وصارت كل نفس تتطلع بشوق وتطير من الفرح بمقدم خير البرية إليها وبقدومه الميمون تردد فى جنبات طيبة الطيبة ذلك النشيد الخالد الذى تطرب إليه كل نفس ويرتاح إليه كل قلب:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع



أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة مرحباً ياخير داع

نعم لقد أحلوه في قلوبهم وأحاطوه بنفوسهم وفرحوا به واتحدوا في حبه والإخلاص له وأسس الرسول في أيام إقامته في بني عمرو بن عوف بقاء أول مسجد في الإسلام هو مسجد قباء ثم خرج عليه السلام بناقته من قباء إلى المدينة والقلوب تخفق بحبه والأبصار تتطلع بشوق إليه وتهافت عليه الأنصار قوماً بعد قوم (هلم يا رسول الله إلينا) إلى العدد والعدة والمنعة لكن رسول الله يقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة ومازالت تسير حتى إذا أتت على دار مالك بن النجار بركت على باب المسجد وهو يومئذ مربد تمر لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو وهما يتيمان في حجر سعد بن زرارة ثم سارت الناقة ورسول الله عليها حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري فقال عليه السلام (هاهنا المنزل إن شاء الله) (رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه في منزله.

وهكذا شرفت المدينة المنورة بهذا الحدث الخالد وطارت شهرتها في الآفاق بمجيء رسول الله إليها وشرفت كذلك بأيوائها ونصرتها لرسول الله وأصحابه.. فخرجت منها جحافل الإسلام التي رفعت لواء العدل في كل مكان ونشرت الأمن والاستقرار على هذه الأرض في وقت علت فيه صيحات الظلم والطغيان وفقدت فيه كل مقومات الحياة لبني الإنسان..

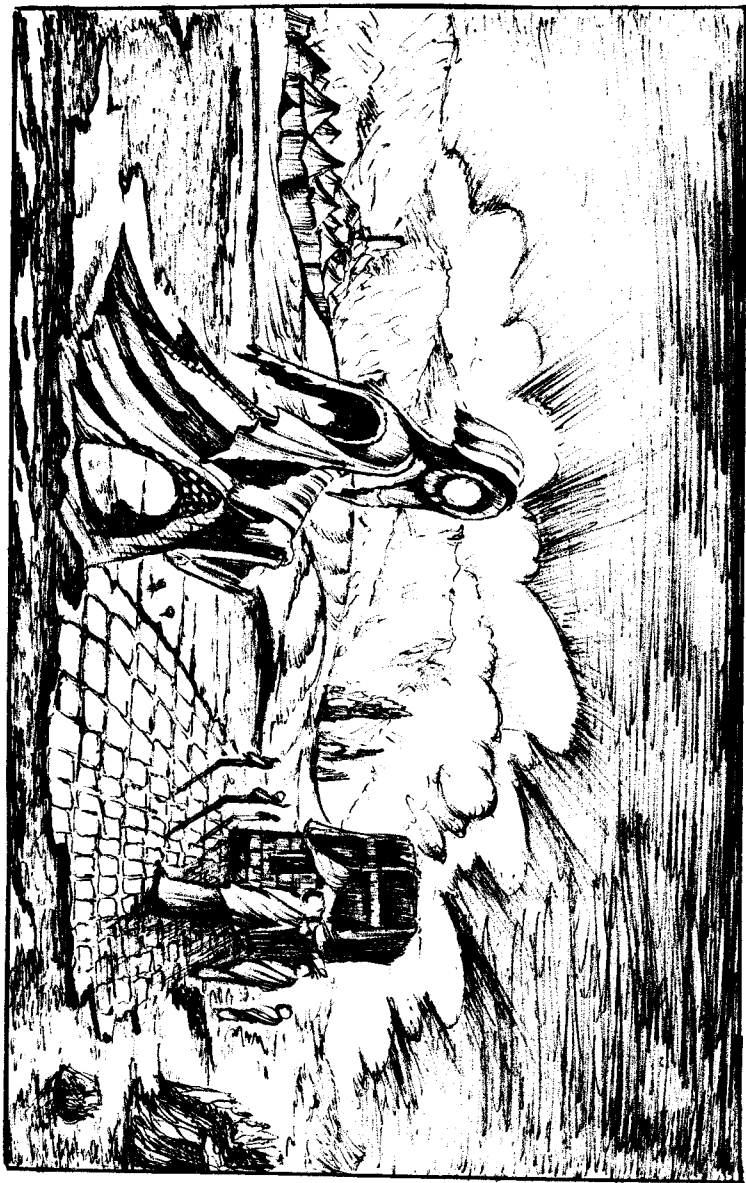
وحج رسول الله

وحج رسول الله

تسع سنوات مضت على هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طيبة الطيبة وأخذت أشهر العاشرة تتابع بعضها حتى أتى شهر ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة حينما رأى رسول الله عليه الصلاة والسلام تكاثر أعداد المسلمين ودخول الناس فى دين الله أفواجاً عندها عزم عليه السلام على الحج وسرت فى جنبات المدينة وبين ماحولها من قرى هذه الرغبة من نبى الهدى فعلى البشر كل وجه وطار الشوق بكل قلب للانتماء بخير خلق الله أجمعين.

إنها فرصة العمر لكل مسلم أن يسير خلف رسول الله حاجاً إلى بيت الله وعاشت المدينة أياماً وهى تشهد ذلك الاستعداد وتلك الرغبة العظيمة من كل فرد وداخل كل بيت لقد عزم الرجال والنساء والصبيان على الانضمام إلى مسيرة الخير والحب والسلام التى يقودها نبى الإسلام من منطلق الدعوة ومأرز الإيمان ومضت أيام الشهر سريعاً حتى كان اليوم المشهود لخمس ليال بقينا من شهر ذى القعدة حينما شهدت المدينة طرقاتها تكتظ بمئات الآلاف من المؤمنين مليحة مجيبة داعى الله إلى حج بيته بعد أن سمعت مؤذن الرسول يعلن للناس أن رسول الله حاج فى هذه السنة. لقد ييم صوب المدينة على أثر ذلك خلق كثير كلهم يطير به الشوق إلى صحبة رسول الهدى فى أعظم مسيرة شهدها التاريخ .

وقد عرفت هذه الحجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاريخ بحجة الوداع وهى الحجة الوحيدة التى حجها عليه السلام بعد الهجرة فلم يحج قبلها ولا بعدها وسميت حجة الوداع لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يودع فيها أصحابه ويقول لهم: اسمعوا منى أين لكم فلعلنى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبداً.. وسارت جموع المسلمين فى هذه الحجة من أرض المدينة مع نبيها وأحرمت من ذى



الحليفة وهى فى كل موقف وفى كل حركة وفى كل عمل تسير على هديه وتتبع خطاه وفى كل وقت كان عليه الصلاة والسلام يعلم أصحابه ويبين لهم طريقة الحج ويرشدهم إلى أيسر الطرق ويسهل عليهم ويبين لهم مواقف الحج ومشاعره العظيمة وأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم.

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس يوم الحج الأكبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس اسمعوا قولى فإننى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن نساءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم وقد بلغت فن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن كل ربا موضوع ولكن لکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وأن أول دمائکم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فهو أول ماأبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد: أيها الناس فإن الشيطان قد يش أن يعبد بأرضکم هذه أبداً ولكنه يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالکم فاحذروه على دينکم..

أيها الناس: إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متتالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أما بعد :

أيها الناس : فإن لکم على نساءکم حقاً ولهن علیکم حقاً، لکم عليهن أن لا يوطئن فرشکم أحد تکرهونه وعليهن أن لا يأتین بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لکم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهین فلهن

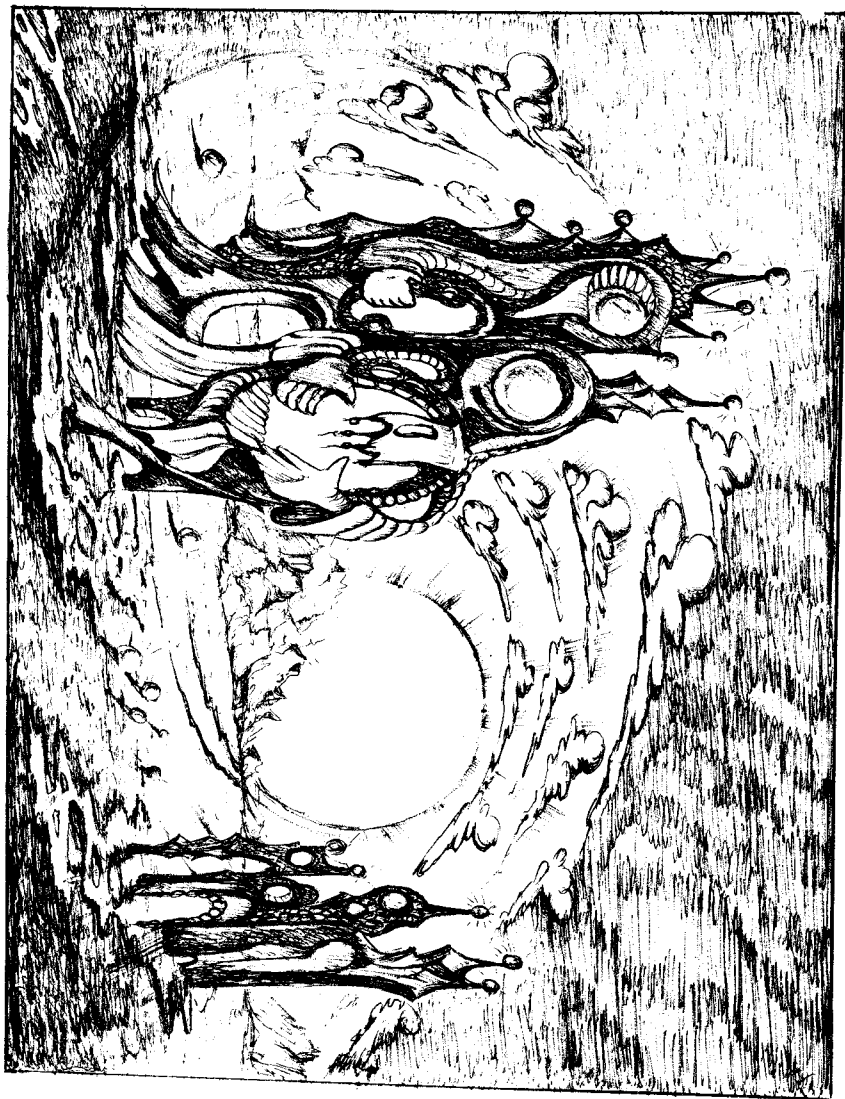
رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يمكن
لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله
فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بلغت وتركت فيكم ما أن أعتصمت به فلن تضلوا
أبداً أمراً بينا كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن
المسلمين أخوة فلا يحل لامرء من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس منه فلا تظلمن
أنفسكم اللهم هل بلغت.

فضج الناس جميعهم وقالوا: اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم
أشهد.

وقال عمرو بن خارجة بعثني عتاب بن أسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ففي حاجة رسول الله واقف بعرفة فبلغته ثم وقفت تحت ناقة رسول الله عليه الصلاة
والسلام وأن لغامها ليقع على رأسي فسمعته وهو يقول: أيها الناس إن الله قد أدى
إلى كل ذي حق حقه وأنه لا يجوز وصية لوارث الولد للفراس وللعاهر الحجر ومن
أدعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل
الله منه صرفاً ولا عدلاً.





رجال الايمان

رجال الإيمان

وأصبحت المدينة المنورة فى يوم غائم والحياة تسير بها كعادتها هادئة مستقرة اللهم إلا ما كان يختلج فى النفوس ويتردد فى الصدور حول استكشاف ما كان من أمر المسلمين الذين خرجوا إلى غير قريش حينما أمرهم نبيهم بهذا... كانت الأعين تتطلع إلى كل قادم إلى المدينة من بدر لاستكشاف خبر اللقاء الذى ترددت أخباره أخيراً بين عطاء قريش وساداتها وبين المسلمين ومع إشراقة الشمس على ربوع هذه المدينة التى عمها ضياء النبوة سمع أهل العالية صوت عبد الله بن رواحة كما سمع أهل السافلة صوت زيد بن حارثة رضى الله عنهما يبشران من بالمدينة من المسلمين بفتح الله على رسوله وانتصار جيوش الإيمان فى بدر على صولة قريش وجبروتها وطغيانها ويذكران لهم أخبار النصر المؤزر فى بدر ويستعرضان قتلى قريش.

وهنا هلل المسلمون الذين فى المدينة وكبروا واستبشروا بهذا وحدوا الله على ذلك النصر العظيم الذى أثبت لكل قبائل العرب مولد دولة الإسلام القوية التى أرسى دعائمها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

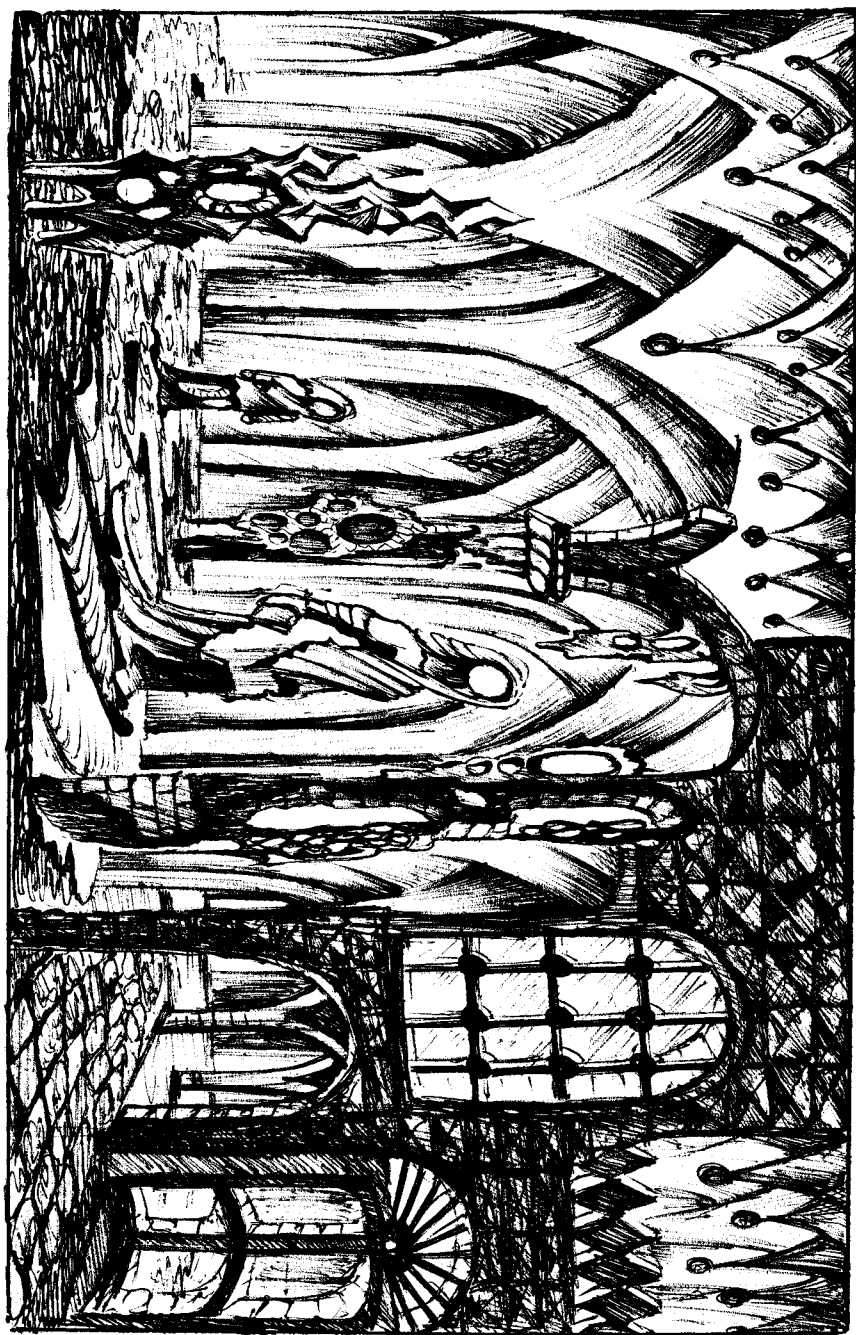
أما المنافقون واليهود فقد طار لبهم وأصابهم الهلع والجزع وشبت فى نفوسهم نيران الأحقاد والعدوان والبغضاء على الظهور لهذه الدولة المسلمة وهذا النصر الذى أحرزته وأثبتت وجودها بين أمم الأرض وكان على رأس هؤلاء اليهود الحاقدين كعب بن الأشرف الطائي النبهاني .. لقد أكل الحقد قلبه وبلغ منه الغيظ مبلغه ولذا قال لما سمع خبر النصر أحقاً هذا؟؟ أحمد قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان — يعنى زيداً وعبد الله بن رواحة — فهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ظافراً منتصراً... وفرح المسلمون

بنصر الله وابتهجوا بهذه الموقعة العظيمة التي أثبتت لكل حاقد أن دولة الإسلام قوية صاعدة وأنها قد أعلنت في مكة وعندما تيقن كعب بن الأشرف عدو الله الخبر رأى أن يخرج إلى مكة يحرض على حرب محمد وينشد الأشعار على قتلى بدر ويفصح عن صداقته لقريش.. ونزل على المطلب بن أبي وداعة بن خبيزة السهمي في مكة وأظهر لقريش صداقته وبكى معهم على القتلى من أصحاب القليب في بدر ونظم الأشعار وما قاله في هذا:

طحنت دجى بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لا تبععدوا . إن الملوك تسرعوا
كم قد أصيب به من أبيض ماجد	ذى بهجة يأوى إليها الضبع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت	حال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم	أن ابن الأشرف ظل كعباً يجزع
صدقوا فليس الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث لطبعته	أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم	خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
وابننا ربيعة عنده ومنبه	ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم	فى الناس بينى الصالحات وجمع
ليزور يشرب بالجموع وإنما	يحمى على الحسب الكريم الأروع

وعاش كعب فى مكة أياماً يشارك قريشاً فى مصابها ويذكر أجمادها ويحرضها على الانتقام من محمد وأصحابه ويقول فى ذلك الشعر ويتباكى على قتلى قريش فى القليب، وأخيراً عاد إلى المدينة وبقي بها عدواً لدوداً للمسلمين يعمل كل ما فى وسعه لإيذائهم. وبلغ به الأذى أن شيب بنسائهم.. وتذمر المسلمون من هذا الأذى



ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أزعج أصحابه من عداوة هذا الرجل وتطاوله عليهم وتشبيهه بنسائهم. ورأى عليه الصلاة والسلام أن الوقت قد حان لكف أذى هذا الطاغية ولكن بأية وسيلة. وهو فى وسط أخواله اليهود ويقع فى حصن منيع شامخ لا يطوله أحد فى عالية قباء. بأى طريقة يستطيع أن يقطع لسانه جزاء ما فعل من التحريض والتشبيب والمعاداة الصريحة الواضحة. لقد زادت عداوته عن حدها وكان لابد من الانتقام لأعراض المسلمين فى المدينة التى شجب بها هذا اللعين لكف أذاه من ناحية ولإدخال الرعب والخوف فى قلوب من تسول لهم أنفسهم أذى المسلمين أو التعرض لهم من اليهود والمنافقين من ناحية أخرى.

فعزم الرسول عليه الصلاة والسلام على قتله وقال فى مجلس أصحابه.. من لى بابن الأشرف؟ فرد على الفور محمد بن مسلمة الأوسى أنا لك به يارسول الله. أنا أقتله قال عليه الصلاة والسلام افعل إن قدرت على ذلك.

ومحمد بن مسلمة الأوسى رجل شجاع شديد يحمل قلباً قوياً ويمتاز بالإيمان الراسخ. وهو أبو عبد الله محمد بن مسلمة يتصل نسبه إلى عمرو بن مالك بن الأوسى شهد رضى الله عنه بدرأ والمشاهد كلها واستخلفه النبي على المدينة فى غزوة تبوك ومنحه سلب مرحب يوم خيبر..

ولقد عزم محمد بن مسلمة على الوفاء بوعده لرسوله عليه الصلاة والسلام وكبرت فى مخيلته طريقة هذا الوفاء بالوعد وأخذ يفكر فى طريقة وفائه والفوز بالقضاء على هذا الطاغية فكث ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق بنفسه. فذكر ذلك لرسول الله فدعاه فقال له لم تركت الطعام والشراب؟ فقال يارسول الله قلت لك قولاً لا أدرى هل أفي لك به أم لا؟ فقال إنما عليك الجهد. فقال يارسول الله إنه لابد لنا من أن نقول.. قال.. قولوا ما بيدا لكم فأنتم فى حل من ذلك.. فتهلل وجه ابن مسلمة لهذا وأحكم خطته لهذا الأمر الخطير فجمع معه سلكان بن سلامة — أبو نائلة — وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر والحارث بن أوسى وأبى عيسى بن بشر..



وسار أبو نائلة سلكان بن سلامة حتى وصل كعب بن الأشرف وتحدثا طويلاً ثم قال أبو نائلة.. وبحك يابن الأشرف إنى قد جئتكم لحاجة أريد أن اذكركم لك فاكم عنى قال: افعل. قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء عادتنا به العرب ورمطنا على قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا فقال كعب بن الأشرف: أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول فقال سلكان إنى قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهك ونوثق لك ونحسن فى ذلك فقال: أترهنونى أبناءكم قال: لقد أردت أن تفضحننا؟ إن معى أصحاباً لى على مثل رأى. وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهك من الحلقة — السلاح — مافيه وفاء.. قال إن فى الحلقة لوفاء وهنا رجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم الخبر وأمرهم أن يأخذوا سلاحهم وقد مشى رسول الله معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم.. وعندما انتهوا إلى الحصن هتف به أبو نائلة وكان كعب حديث عهد بعرس فنزل وتحدث معهم ساعة ثم خرجوا يتماشون وشام أبو نائلة يده فى رأس كعب وقال ما رأيت الليلة طيباً أعطر قط ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم عاد لمثلها فأخذ يقود رأسه وقال: اضربوا عدو الله فضربوه.. وتناول محمد بن مسلمة سكيناً فى سيفه فوضعه فى ثنته وقد صاح عدو الله ووقع على الأرض. وبذلك أطاح المسلمون بهذا الطاغية الذى تكرر أذاه عليهم ووقف فى سبيلهم وشبب بنسائهم واستراحوا من شره وأذاه. وفى الإطاحة بهذا الطاغية يقول كعب بن مالك رضى الله عنه:

فغودر منهم كعباً صريعاً	فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم وقد علتة	بأيدينا مشهرة ذكور
يأمر محمد إذ راح ليلا	إلى كعب أخو كعب يسير
فاكره فنزله بمكر	وعمود أخو ثقة جسور

النشيد الخالد

النشيد الخالد

كلما دار الزمن دورته فى كل عام تردد فى النفوس المؤمنة ذلك النشيد الخالد الذى حفظته الأجيال على مر العصور والأزمان.. ذلك النشيد الرائع الذى خرج من قلوب مؤمنة ونفوس مستبشرة بمقدم خير البرية وصفوة الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة.

ذلك النشيد الذى استقبلت به طيبة الطيبة رسول الهدى وهادى البشرية من دياجير الظلام إلى نور الحق والصدق واليقين. ذلك النشيد الذى رددته المدينة من أقصاها إلى أقصاها يوم أن استبشرت وعمت الفرحة فيها كل بيت بقدم النور المبين الذى أضاء قلوب الأنصار وتغلغل إلى أعماق نفوسهم رجالاً ونساء وشباناً حتى خرجت يثرب وهى تردد عن صوت واحد....

طلوع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئنا بالأمر المطاع
جئنا شرفنا المدينة	مرحباً يا خير داع

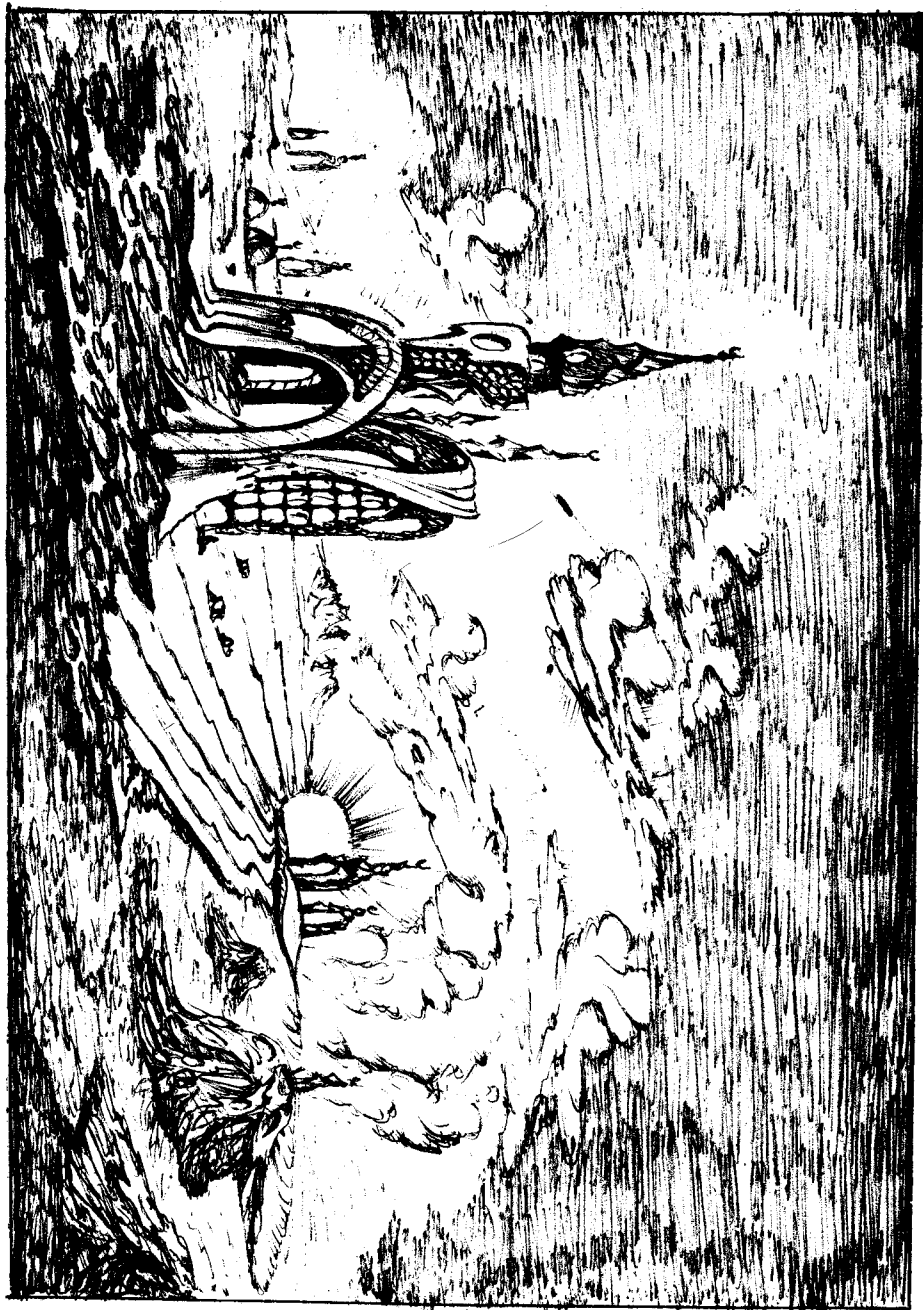
ولما أذن الله لحبيبه صلى الله عليه وسلم بالهجرة واصطحب معه الصديق وعلم الأنصار بخروجهم من مكة بدأوا يترقبون وصوله إليهم يتلهفون لرؤية نبيهم فى مدينتهم ويتعمقون بأبصارهم عبر الأفق البعيدة فى كل يوم لعلهم يرونه مقبلاً نحوهم ولتسمع قول أحد الأنصار يصف ذلك الترقب والانتظار حيث يقول: لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقعنا قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى



ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا وذلك في أيام حارة حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود وقد رأى ما كنا نصنع وإننا ننتظر قدومه عليه السلام علينا فصرخ بأعلى صوته:

يا بني قبيلة هذا جدكم قد جاء قال: فخرجنا إلى رسول الله وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضى الله عنه في مثل سنه وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك وأكبره الناس وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله فقام أبو بكر فظله بردائه فعرفناه بعد ذلك.

وقد كان يوم وصول النبي إلى قباء يوماً مشهوداً في تاريخها حيث عمت الفرحة كل قلب واستبشرت بقدومه كل نفس وأخذ الأنصار يصلون إلى دار كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمة زرافات ووحدانا ليرؤ رسول الله وليطمئنوا على وصوله سالماً إليهم. وقد أقام عليه السلام في قباء ثلاثة أيام أو أربعة وفي هذا يقول ابن هشام: أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجد قباء ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة في بني سالم بن عوف وصلّاها في المسجد الذي في بطن الوادى وادى رانواء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.. حقاً لقد كان يوماً مشهوداً في تاريخ هذه المدينة لم تشهد قبله ولا بعده مثله ذلك اليوم العظيم الذى سار فيه موكب المصطفى صلى الله عليه وسلم سائراً من قباء إلى المدينة يحفه الأنصار من كل جانب بنفوس متلهفة وقلوب خفاقة ونفوس متعطشة لتنال فخر الدهر وتحظى بنزول رسول الله فيهم. لقد شكلوا وفودهم لاستقبال هذا القادم العظيم. ففى مسيرته عليه الصلاة والسلام وهو على ناقته أتاه وفد بني سالم بن عوف يتقدمهم عتب بن مالك وعباس بن عباد فقالوا يا رسول الله أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة. فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فانطلقت ناقته حتى وازنت دار بني بياضة فتلقاها وفدها برئاسة زياد بن لبيد وفروة بن عمر فقالوا مثل مقالة وفد بني سالم بن عوف فرد عليهم المصطفى قائلاً: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فسارت القصواء حتى حاذت دار بني ساعدة فوقف وفدها يتقدمهم سعد بن عباد والمنذر بن عمرو طالبين من الرسول أن ينزل بينهم فى العدد والعدة



والمنعة ولكنه عليه السلام يقول لهم مثل مقالته لبقية الوفود التي وقفت له من قبل وسار موكب الرسول مجلله الوقار وتطلعه الحب حتى حاذى دار بنى الحارث بن الخزرج فإذا بوفدها يتقدمهم سعد بن الربيع وخارجه بن زيد وعبد الله بن رواحة ثم وفد بنى عدى بن النجار وهم أخواله حيث أن سلمى بنت عمرو أم عبد الله إحدى نسائهم ويتقدم وفدهم سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن أبى خارجة ويعتمد هذا الوفد على صلة القرابة ليركز عليها قائلين: يا رسول الله هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة فيرد عليهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

وتسير ناقة رسول الله عليه الصلاة والسلام فى هذه المواكب الحافلة حتى تأتى دار بنى مالك بن النجار فتبرك فى مربد سهل وسهيل ابني عمرو من بنى النجار فلما بركت ورسول الله عليها لم ينزل وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لا يشنئها به ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه وأرزمتم ووضعتم جرأتها فنزل عنها رسول الله.

وهذا تهلل وجه أبى أيوب خالد بن يزيد وكاد يطير من الفرح بهذا الشرف العظيم وأسرع من فوره إلى رحل رسول الله ووضع في بيته وأقام رسول الهدى فى دار أبى أيوب الأنصارى حتى بنى مسجد رسول الله وبيوته حيث انتقل إليها...

وفى أثناء بناء المسجد أصابت سعد بن زرارة نقيب بنى النجار (الذبحجة) وهو نوع من الأمراض يصيب فى الحلق فأت، وهنا اجتمع بنو النجار إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ليختار لهم نقيباً حيث قالوا: يا رسول الله إن هذا الرجل قد كان منا حيث قد علمت فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم فقال لهم: أنتم أخوالى وأنا بما فيكم وأنا نقييكم وكره رسول الله أن يحظى بها بعضهم دون بعض فكان من فضل بنى النجار الذى يعدون على قومهم أن كان رسول الله نقييهم..

طريق السعادة

طريق السعادة

لم يكن سعيد من أبناء الشراء والنعم بل كان ذلك الطفل الذى لم يتجاوز التاسعة من عمره، توفى والده وهو فى الثامنة وماتت أمه قبل والده بسنة واحدة... توفى أبوه ولم يترك له شيئاً من متاع الدنيا اللهم ذلك البيت الصغير المتهدم الذى أصبح فى معزل عن بيوت الحى. ولهذا كثيراً ما يجد لذة فى البقاء به معظم وقته. إنه يشعر باللذة والسرور حيثما يكون بين جدران هذا المنزل الصغير ولكن كيف يجد هذا الوقت وعمه يلاحقه بين فينة وأخرى؟ عمه الوصى عليه الذى يصغر والد سعيد بسنتين ويزيد عنه بخمسة من الأبناء وشيء من السمعة والثراء. لقد وجد فرصة عندما آل أمر سعيد إليه... وجدها حينما رأى أن الحقل الذى أمام داره يحتاج إلى من يقوم برعايته والحفاظ عليه من أغنام الجيران وأطفالهم. ومن لها سوى سعيد هذا الذى صار دخلياً عليه فى بيته ومزاحماً لأبنائه فى معيشتهم..

وكانت نفسه تحدّثه أحياناً بترك سعيد وإهمال أمره وعدم العناية به ولكنه يخاف من ألسنة الناس وأحاديثهم بترك ابن أخيه. ولذلك أعد خطة يومية لهذا الطفل المسكين. إن عليه حراسة الحقل من الصباح حتى المساء وعدم مبارحته أو تركه. والويل له ثم الويل إن لم يقيم بهذا العمل.. وحتى الناس سوف لا يخطئون عندما يظهر لهم أنه يود رعايته وحفظه بهذا العمل البسيط بالنسبة له والصعب كل الصعوبة أمام طفل صغير يحب الحركة واللعب والمرح.. لم يجد سعيد متنفساً من هذا العمل الشاق الممل. فهناك أبناء عمه يمرحون ويلعبون مع أبناء الجيران فى الساحة الكبيرة التى بجانب دارهم القديمة... ويحس بحرقه عظيمة وآلام فى نفسه لا يعلم كيف يتخلص منها. وحتى أبناء عمه كانوا يخبرون والدهم حينما يرى سعيد فرصة صغيرة للعب معهم وهنا ينزل السخط بجميع ألوانه واللوم بكافة أشكاله على (هذا الولد الشقي المتعب). العنيد فى نظر هذا العم وزوجته الغليظة القلب..



وتمر الأيام وسعيد لا يزال يعاني من المتاعب والآلام النفسية بفرضية العمل وحرمانه من اللعب والفكاهة والعطف والحنان... وفي صبيحة يوم جمعة وبينما كان سعيد فى الحقل الذى مل النظر إليه وسئم المقام فيه وإذا بإمام مسجد القرية يناديه...

إنه الشيخ صالح الذى كثيراً ما نال سعيد عطفه وشفقته بكلماته الحلوة وحكاياته الممتعة وابتساماته المتتالية... أتاه ليخبره بأن لديه عزمًا أكيداً على تعليم أبناء القرية.. تعليمهم القراءة والكتابة وتحفيظ المجيدين منهم القرآن الكريم. ولا يقف الخبر عند هذا الحد بل إن دار سعيد الصغيرة سوف تكون مقراً لذلك... ويزيد من إعجاب سعيد وفرحته أن عمه وافق على هذا الإجراء الذى أقنعه به الشيخ صالح وعلى إدخال سعيد مع صبية القرية للدراسة والتعليم...

لقد كانت فرحة كبرى وبشرى عظيمة لترك الحقل إلى حيث يجد أقرانه هناك يجتمع بهم ويحدثهم ويلعب معهم أيضاً...

وفى صباح اليوم التالى ذهب سعيد إلى بيته الصغير الذى أصبح مقراً للتعليم. يالها من فرحة كبرى أن يعيش بين جدران له لحظات فيها أخذ وعطاء وحركة وحديث. ويالها من أيام جميلة يقضيها مع هؤلاء الفتية حتى منتصف النهار ثم يذهب فى النصف الأخير منه للحراسة فى الحقل.. وتبدأ الدراسة ويكون التنافس ويبرز سعيد من بينهم. لقد وجد ضالته. أنه قد أصبح طالباً نجيباً أليماً ذكياً نال إعجاب الآخرين بفهمه وإدراكه وسرعة حفظه. ووجد العم شيئاً فى نفسه وبدأ الحقد يدب فيها فأضاف إلى الحراسة العمل. إن على سعيد أن يذهب للدراسة وبعد الخروج منها عليه أن يذهب إلى الحقل ليعمل حتى لا يجد فرصة للمذاكرة والاطلاع وحتى لا يسبق أبناء عمه الذين يجب أن يكونوا فى المقدمة. ويجانب هذا وجد الضرب والتوبيخ والخط من الهمة سبيلاً إليه.. ويوجس فى نفسه أخيراً أن يخرج من الدراسة. ولكنه ماذا يفعل أمام الناس المحيطين به الذين تصل إليهم أخبار سعيد وجده واجتهاده....

ويحس سعيد هذا من عمه ويخبر الشيخ صالح ويتفقان على أن يكتم السر بينهما

ليمضى فى طريقه. ويظهر الشيخ صالح أن سعيداً قد تغير وأنه لا يقاس بشيء بالنسبة لأبناء عمه. فالبلادة والبلاهة والغباء واللامبالاة صفات سعيد. وهنا يتجه سعيد إلى كتاب الله حفظاً وتجويداً ويذهب منذ الصباح الباكر فى كل يوم وقبل أن يأتى زملاؤه لكى يستظهر ما أخذه بالأمس. ومن ثم يعتزل مكانه ليذاكر وحده وهكذا أمضى وقتاً ثميناً بمساعدة الشيخ صالح.. وفى أسمية جميلة وبينما كان سعيداً عائداً من الحقل الذى أتعبه وأشقاه إلى دار عمه التى لقى فيها الهموم والمتاعب تذكر أن غداً مهم فى حياته.. تذكر الساعة الحلوة التى ستمر به غداً عندما يكمل آخر سورة فى القرآن الكريم أمام فرحة وتصفيق شبان القرية الذين لا يعلمون بالخبر. والذين لم يدر بخلدهم أن سعيداً أول من يتم الحفظ والتجويد لهذا الكتاب العظيم.. ويمر الليل كله دون نوم أو استراحة بل كانت الأفكار جميعها تلتقى حول الساعة المنتظرة... ومع ترنج الشمس فى بهو السماء وبنفس مليئة بالفخر والاعتزاز وبين هتاف الشباب وتصفيقهم أعلن الشيخ صالح فوز سعيد وإحرازه قصب السبق بين الزملاء وإتمام حفظه لكتاب الله تعالى. لقد أصبح رجلاً من الحفاظ أحبه الناس وعلت شهرته وطففت على محاولات عمه للنيل منه والخط من منزلته. ولو عرف هذا مسبقاً لما وافق كلياً منذ البداية ولكن أراد الله إلا أن يتم هذا الأمر لهذا الفتى الطموح.. وتمر شهران على هذا الحدث وتفتتح مدرسة فى القرية ويكون سعيد مديراً رغم أنف الحاسدين.. نعم لقد صار سعيد مديراً لهذه المدرسة لأنه أصبح الرجل المتعلم الأول فى القرية وبذلك تحول منزله الصغير إلى مدرسة مستشارها الشيخ صالح ومديرها الأستاذ سعيد ومن بين طلابها أبناء عمه وشباب القرية بأجمعها.

الوقوف

الوفاء

أفل الشيخ راجعاً إلى مضرب خيامه وخيام قومه التي كانت قد ضربت أطناها على ربوة عالية اصطبغت حصباؤها بلون ارجوانى بديع.

كانت الشمس كحسناء أعياها ملل فذبل عودها واهتز قوامها واختلط دم وجهها بلونه فبدا مصفراً عسجدياً.. مالت الشمس إلى حالة الراحة من رحلة يوم طويل.

تنقل الشيخ بناظره حول الربوة فإذا بالليل قد أسدل رداءه الأسود على الكون. لينح كل غاد ورائح قسطاً من الدعة والسكون... قسطاً يستبدل به عناء يوم شاق مل وماهى إلا ساعة وقد اجتمع القوم حول نار شيخهم يتحدثون عما جرى لكل منهم فى يومه من غريب الأمر وعبرته. وعجيب القول وفكاهته. ينتقلون بالحديث كما تنتقل ماشيتهم باحثة عن أطايب العشب وجميل نبتة ومنظره...

ويمر حديث القوم تبعاً علمهم يستجذبون أطراف أحاديث شيخهم الذى صمت هذه الليلة ولم ينطق ببنت شفة. وقد عرفوه من قبل الواعظ لهم المشنف آذانهم بحلو القول وجميل المنطق. ولكن عبثاً يحاول. فإزالت صيحات وضحكات شباهم تشق ستار هدوء الليل وسكونه اثارة له واشتياقاً لحديثه حتى آن أوان هجعتهم واشتياق أجفان كل منهم لتسترخى.. تلك الأجسام التي أمضت ذلك اليوم بين كد وتعب وعمل.. فانصرف الجميع وقد راهم صمت شيخهم لا يلوون من أمره على شىء ولا يتجرؤون على الإقدام عليه بسؤاله عن سبب صمته الرهيب هذه المرة...

وطاف الكرى على الكون فهجع جميع من تحركت فى جسده نفس. ونبض بين ضلوعه قلب، وجرى فى عروقه دم سوى ذلك الشيخ وأمثاله...

ذلك الشيخ الذى استلقى ولم يلبث أن ضرب بينه وبين النوم ستاراً لا يدرى هو



نفسه ماسببه.. غالت الشىخ نفسه وأغمض عىنه مرات ومرات لعل هفوة تأتفه أو غفوة من ذلك السلطان الذى تركه وحده طلقاً دون أسر...

سبح خىاله ودارت ففه أشفاء وأشفاء يفكر وىنتقل من خىط إلى خىط فى شبكة واسعة الحلقات طوئلة لا نهایة لها من التفكر المطلق فى هجة اللیل.. اللیل الذى لا یشعر بطوله وتمدد ساعاته إلا كل قلب سقیم معنى اصطادته وأسرتة الأسقام والهجوم والمتاعب.. لقد كانت لالة للاء على ذلك الشىخ الذى أمضى العقد الثامن من عمره وزاد علیه سنوات لم تمر به خلاله مثلها...

وفجأة فى الهزاع الآخر من اللیل أطل القمر مبتسماً ومرسلاً أشعة رقیقة مرهفة إلى كل شبر أمامه.. وىالشد فرحة الشىخ بوجوده معه یؤانسه ویمضى معه بقية لیلته التى شعر ففها بانقباض فى نفسه لا یدرى كیف ومع من ىستطیع أن یدد هذا التقلص والاحجام الذى أحس به... وهاجت شجونه برؤیته للقمر فحياه بنظرة رائعة وتأمل عمیق وزاد تأمله فى فضاء واسع یشیر ففه كواكب كأنها مملكة قد منحت ملكها — القمر — تاجاً مرصعاً بالجوهر واللائىء.. سیر فى هذه المملكة الواسعة فینشر الخیر والنور. ویناجیه كل من رآه بقلبه مناجاة الصدیق الوفى لصدیقه دونما تكلف أو اجهاد.. وتاه الشىخ بعمق تفكره إلى أن أحس أنه یناجى القمر قائلاً... أیها القمر ىاملك النجوم ترى هل هجرك النوم هذه اللیلة؟.. إننى أعرفك من قديم. ألا یدب التعب إلى أوصالك؟. أین تذهب عندما تغیب؟ لماذا تفارق هؤلاء الذین التفوا حولك وقد أصفوك الجیره؟ أم أنك لا تهلك كل تلك الأمور فتذهب دون استئذان؟ ولكنك تعود. ألم تر فى مسیرك جارنا القديم الذى رحل عنا ولم نعد نسمع بأخباره؟... لقد سألت سوانح الطیر وبوارحها عن مكانه ولكنها لا تجیب...

وهنا بدأت فى مخیلة الشىخ حلقة واسعة مبهمة من استعادة صور الماضى البعید فلقد تذكر یوم أن كانا طفلین یرعیان بجانب الجبل الأخضر قرب الغدیر یمسكان صغار الطیر فى أعشاشها. ویتسلقان أشجار الطلح والسدر بحثاً عنها... تذكر یوم أن جادت السماء بذلك المطر الغزیر فوضعت علیها السیول حصاراً دام یوماً ولیلة وهما فى مكانها مع مجموعة أغنامها ینتظران الرحمة وقد أیقنا بالهلاك...

ومرت بالشيخ لحظات طالما استعطف عجلة الزمن لتمنحه بعض الوقت ليقلب صفحات ماضيه المجيد الذى سجل أسطرها بنفسه يوم أن كان يستضل تحت ظلال سيفه كل من تسرب إلى قلبه خوف أو سرى فى أوصاله وجل أو نابه ظلم أو اعتداء.

نعم لقد هجر ذلك السيف غمده سنياً ليست بالقصيرة وصال فى صفحات المجد وجال حتى أعيا فكره غمده عند ما تصببت من جبينه الدماء...

وماهى إلا سويغات عابرة حتى قطع عليه توديع القمر إياه كل ما كان سابجاً فيه ومخلقاً فى خياله مع خيوط أشعته الساحرة إلى حيث يبدو الجبل أمامها بعزته وجبروته وقوته فيقطعها عن الوصول إلى الشيخ وربوته وخيامه... ووجد الشيخ نفسه أمام اطلالة الفجر فإذا بالنور يطارد فلول الظلام وإذا بأصداء أناشيد العصافير تترد وكأنها سلسلة على صفاة ملساء تقرع الأذان فتملأ النفوس بصوتها ورنينها. وحانت منه التفاتة على أثر وقع أقدام فى الغسق... انها أشباح مقبلة نحوه تتراءى للنظر وكأنها فى اجتماع واقتراق.. رأى تلك الأشباح تتخبط فى غلس الفجر فهض من مضجعه إلى حيث الثلاثة الأشباح التى رأى أقدامها تغوص فى رمال الصحراء فتتأقل بالمسير وماهى إلا بضع خطوات حتى وقف الشيخ أمامها.. إنه لم يصدق نفسه فتحسس بيده عينيه لعله يكون فى حلم. لم لا؟؟ وقد رأى رفيق صباه وأنيس وحدته فى صغره ابن جارههم الشيخ (ثابت). لقد أتعب راحلته أياماً فى سبيل العثور عليه ورؤيته. لأنه منذ ذلك اليوم الذى توفى فيه والده لم يعلم بجهته. ولم يعلم إلى أى مربع من مرباع العشب كان مسيره.. لقد حارت فى عين كل منها دموع فرح اللقاء. وكثيراً ماتكون الدموع علامة للفرح عند اللقاء بدل الابتسام وتعانقا عناق الأخوة الأشقاء. وامتلاً قلب الشيخ فرحاً شديداً فبادر إلى إكرام ضيفه وزوجه وابنته وحينما رآهم قد ارتدوا ثياباً رثة ظهر منها أن الفقر والعوز نالهم منه الشئ الكثير فذهبت المواشى وتبدل الحال من الغنى إلى الفقر ومن العز إلى الذل بادر إلى تغيير مظهرهم على الفور بملبس جديدة واستيقظ أهل الحى جميعاً بما فيهم أبناء الشيخ الثلاثة الذين حيوا جار أبيهم فى القدم ورفيق صباه أيام الطفولة — وبالغوا فى الإكرام والتحية له والحفاوة

به واعتبروه أخاً شقيقاً لأبيهم — والدهم — الذى رأوا منه مبالغة ليس لها حدود فى الكرم مع هذا الإنسان حيث عمد إلى ماشيته فأعطى نصفها لذلك الضيف الجديد ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اقتطع له نصف بيته الذى تربع بقية البيوت فظهر فى وسطها كأنه علم شاهق بين مجموعة سلاسل جبال وتلال مبعثرة..

ودار الزمن ومرت الأيام تباعاً والشيخ لا يألوا جهداً فى مزيد الإكرام والتقدير لذلك الرجل الذى بادله الحب والأخاء والمودة والصداقة. تلك الصداقة التى لم ينل منها الصدا على مرور السنين والأيام... وفى الليالى المقمرة من مساء كل يوم يطيب السمر فيقص كل منها قصته فى أعوامه التى أمضاها دون رؤية الآخر... حقاً ما أجل أحاديث العقلاء عندما تشنف الآذان بما حملته صفحات الماضى المليء بالبطولات والأعاجيب..

مرت سبعة أعوام بعد مجيء الضيف الجديد فزادت ثروته ونمت ماشيته وعاد إلى الحالة التى كان عليها من الغنى والسعة بفضل الله تعالى ثم بفضل هذا الشيخ الوفى..

وفى ليلة من ليالى الخريف كانت الجوزاء تطل من على قمة عالية تتوهج فترسل أشعة باسمة على تلك الربوة أتت إحدى بنات (ثابت) جار الشيخ — إلى أبيها مكدرة الخاطر مكسورة الوجه باكية العين.. أتت إلى أبيها بوجه قد علاه شحوب الخجل شاكية إليه أصغر أبناء الشيخ لمضايقته إياها ومحاولة الاعتداء على عرضها مرات ومرات.. إنه الإبن الأصغر الذى وضع الجهل على رأسه علمه وارتكب هواه وأطاع شهوة نفسه ومازين له شيطانه..

إنهمرت الفتاة بالبكاء أمام أبيها وهو يهدىء من روعها فتردد الفتاة: (لقد وقف لى بالمرصاد فى كل يوم ولم أعد أقدر على مقاومته. وقف لى كذئب مفترس يتلمس فرص الهجوم)..

صرف الوالد ابنته وقلبه يتقطع من الغيظ على ذلك الشاب المستهتر. وهم بأمر ولكن تقدير الشيخ له وفضله عليه ونعمته التى يعيش فيها قد كبّلتها وألجمت فاه عن مكاشفة الشيخ بالحقيقة لعلمه بأنه لو اطلع على الامر لفتك بابنه العزيز عليه



القريب من نفسه ولكن ما العمل؟ لم يعد الرجل يطيق تلك الحياة التي يرى فيها كرامته توشك أن تداس في التراب...

وبعد النظر في هذا الأمر على مختلف أوجهه قرر في نفسه الرحيل. لم يجد حلاً غير هذا وهو أسلم حل رآه... ومع تربع الشمس في وسط السماء استأذن الرجل الشيخ في الرحيل إلى دياره زاعماً أن أمطاراً هطلت عليها وعشياً قد عم أرجاءها واشتياًقاً ألقه إليها. وقدم له آيات الثناء والتقدير والاعتراف بالجميل وحسن الصداقة وغاية الوفاء...

ألح الشيخ على جاره - ضيف السبع سنين - بالبقاء وبيان سبب عزمه على الرحيل ولكن الإجابة كانت تأتيه في كل مرة بأن الشوق إلى الديار والعشيرة. وعبثاً حاول الشيخ أن يثنيه عن عزمه ويعدل عن رأيه. فلم يستطع وأحس بحرقه لهذا الفراق وبصدمة هذا الخبر المفاجيء والقرار السريع..

ومع سويحات الأصيل من اليوم نفسه غادرت القافلة التي تحمل ذلك الجار العزيز بعد وداع حار ودموع غزيرة. وحزن الشيخ حزناً لا مثيل له وعم الحزن كافة رجال ونساء الحى وشبابه بما فيهم الإبن المراهق الذى كان هو السبب المباشر فى كل هذا...

استلقى الشيخ على فراشه لينام ولكن ما أشبه الليلة بالبارحة حيث هجره النوم وبدأت أفكاره طوال الليل تجول وتمعن فى حادثة الرحيل هذه وأدرك أنه لابد من سبب لها يكمن خلفها وهو لا يعلمه.. انه يعرف صديقه حق المعرفة فهو الرجل العاقل الحصيف الذى يقدر كل شىء ويحسب لكل حدث حسابه. كانت زوجة الشيخ تراقبه طوال الليل لأنها كذلك لم تتم وبدأت فى حديث مع زوجها تهون عليه الأمر وتنتقل به من حديث إلى حديث وأحس الشيخ من حديثها أن رائحة سبب الرحيل تفوح من أحاديثها تلك. فتظاهر لها بعدم اهتمامه بالرحيل هذا خاصة وأن الرجل هو الذى قرره من نفسه وبعد هذا لا يهمه من أمره شىء. وهنا أفضت الزوجة المسكينة سراً هو محور دائرة تفكيره. حقاً ما أصعب كتمان السر على النساء إذا استودعن إياه..

إنها تعرف القصة بكاملها حيث اشتكت إليها ابنة الرجل قبل أن تخبر أباه. فقصتها على زوجها عن حسن نية ولم تقدر عواقبها ونتائجها...

استمع الشيخ إلى زوجته باهتمام فكان حديثها عليه أشد من وقع الحسام وعرف منها تفاصيل القصة وأدرك أنها السبب المباشر لرحيل أعز إنسان عليه وهنا تظاهر لزوجته برغبة عيونه المقرحة من السهر في النوم وأمرها أن تنصرف عنه وأضمر في نفسه أشياء وأشياء لأعز ابن عليه وأعلى شيء عنده... انه يحب هذا الفتى ويوليه من العناية والحب الشيء الكثير دون أخويه ولكن عاطفة الحب هذه والأبوة سرعان ماتذوب عندما يحس الرجل أن كرامته تهان أو عرض من احتمى بجواره ينتهك. ان الصحراء وتقاليدها لا ترضى هذا وقد ربت في أولئك الناس كل معاني الشهامة والنبيل والوفاء والتضحيات.. فاذا يعمل أمام أمر كهذا وهل يرضى خاصة عندما علم بالقصة.

إن هذا هو البلاء المين والمصيبة الكبرى. إذاً ما العمل لابد من التخلص من هذا الشرير. وجاء الصبح وأرسلت الشمس أشعتها على الكون وأخبر الشيخ أولاده أنه عازم على القنص والصيد في هذا اليوم وأن رفيقه في هذه الرحلة هو ابنه الأصغر. وفرح الشاب بذلك أيما فرح ولم يعلم أن القدر له بالمرصاد وأن نهايته قد حانت على يد والده العطوف عليه المحافظ على كرامته والوفى لصديقه وجاره..

وماهى إلا خطوات وخطوات في مكان خال بعيد عن مضرب الحيام حتى سد الأب ضربته القاضية إلى ابنه فألقته صريعاً... نعم سقط الشاب صريعاً بعد أن أجاب على أسئلة امتحان والده دونما شعور منه وإحساس.. تلك الأسئلة التي أدانتها بمحاولات ومحاولات لهتك عرض ذلك الرجل الطيب ومحاوله دوس كرامته وإلقائها في التراب. وعلى الفور بادر الشيخ في وضع ابنه في كيس جثة هامة لا حراك بها وقد تصارعت في نفسه حنو الوالد وعطفه ووفاء العربي وشهامته. وسالت دمة ساخنة من عينيه رغم ابائه وصلفه وثورات نفسه وعاد إلى الحى وأظهر لأمه بأن ابنها ذهب للقنص والصيد بمرافقة بعض الشباب ولم يعد إلا بعد شهرين كاملين...

صدقت الأم المسكينة الخبر وآمنت به. واستدعى الشيخ ابنه الأكبر وسلمه الكيس الذى بداخله الجثة مع كيس آخر ملىء بالدنانير وأخبره أن هذين الكيسين كانا أمانة عنده لجاره الذى رحل بالأمس ونسيها عنده وحته على أن يجد فى المسير ويسرع الخطى ليلحق به ويسلمهما له ومن ثم يعود فى الحال...

وانطلق الفتى على راحلته انطلاقة السهم يكاد يقطع النجاد والوهاد.. انطلق الفتى وشيء واحد يدور فى غيخته ذلك الفرح الغامر الذى سيملاً نفس جارهم عندما يراه وحنوه عليه وإبتسامته ومرحه معه دائماً...

لم يدر بخلد هذا الشاب أنه يحمل جثة أخيه الذاهب إلى الصيد.. وتتابع ساعات المسير دون شعور أو ملل أو إعياء اللهم إلا قطرات من الدموع تنسكب من عيني راحلته. هذه الراحلة التى كأنها عالمة بما تحمل فتسرع الخطى لتؤدى الأمانة قبل أن يصيبها العطب حتى لا يشعر راكبها بالخبر فيحدث ما لا تحمد عقباه... وواصل الشاب سيره دون أن يريخ هذه الراحلة التى لاحظ منها سرعة عجيبة لم يتعوّدها منها من قبل. وبعد مسير متواصل وصل إلى جارهم المرتحل قرب بئر ماء يستقى فقابله الآخر بدموع غزيرة بللت لحيته.. لقد عرف القصة لأول وهلة يرى فيها الشاب مقبلاً. وعرف أن السر قد أفشى إلى الشيخ وبفرائص مرتعشة وقلب محطم ونفس منكسرة تسلم الراحلة وماعليها وهذا من روع الشاب الذى ألح فى السؤال عن سبب البكاء والحزن. ولكن الرجل عندما عرف أن الشاب لا علم له بالخبر أجابه أن سبب بكائه ونحيبه هو الشوق إلى والد الفتى والعرفان له بالجميل والوفاء. ولبت الشاب بعض الوقت وودع جارهم وعاد من حيث أتى براحلة أخرى غير الأولى حيث بقيت الأولى بحملها حتى ذهب الشاب...

وهنا تظاهر الشيخ لأهله أن الراحلة وماعليها وديعة عنده منذ سنين وأنه سوف يذهب بها إلى من يحفظها عنده مادام جاره الشيخ قد أرسلها له...

وسار الرجل بالراحلة مسيرة نصف يوم لكى يبعدها عن الأنظار وأناخها وأخرج مافى الكيس ويالشدهول مارأى وعظيم مصيبتة عندما أخرج الجثة... لقد بكى

بكاء مرا احترق له قلبه وتقطع منه فؤاده. وندم حيث لا ينفع الندم.. ثم واراها التراب بجانب شجرة كبيرة تغرد عليها العصافير البريئة قرب جدول ماء. وعاد بعد ذلك بأجفان مقرحة وجسم قد براه الدهول وأعيته المصائب. وأقام بأهله فى واديه المخضر هذا ثلاثة أيام يسهر فيها الليل مع النجوم ويشهد احتراق قلبه لما لاقاه من صدق الوفاء الذى عجز كل العجز عن أن يجد له حدوداً...

وأخيراً وبعد أن قلب الأمر على مختلف وجوهه قرر العودة إلى مرايع جاره الوفى الشيخ المحنك وتحت ستار الليل استيقظ الشيخ فإذا بالقافلة التى سارت قبل بضعة أيام قد أتت تحمل المتاع وتقصر الابواب وتحط ماعليها... فيتعانق الرجلان والبكاء والحرقه ويلوم الرجل ذلك الشيخ على عمله ويعترف له أنه الجانى الوحيد على الشاب حيث لم يخبر والده بالقصة بالطريقة الملائمة، ووضع نفسه بين يديه ليقتص منه... ولكن الشيخ سرعان مااثارت ثائرتة وأقسم على جاره أيماناً غليظة ألا يظهر ذلك الخبر فى الحى وبأسران السر فيما بينهما لينتحر على أشواك الصبر وأديم الوفاء...

وعاش الرجلان مع بعضهما عيشة الرجال الأوفياء فزوجا ولديها بنتيهما وأظهرا فى رجال القبيلة بعد انتهاء الزواج أن شابها الذاهب للصيد قد أغار عليه أسد فافترسه.. وتمر الأيام لتشهد ضروباً من الشجاعة والوفاء بين هذين الرجلين حتى غادر الشيخ إلى دار الآخرة.. بعد أن سجل فى صفحات المجد أروع مثل فى الوفاء وأنبل صفة فى الشهامة وأعظم حق فى الجوار...

أساذالجل

أستاذ الجيل

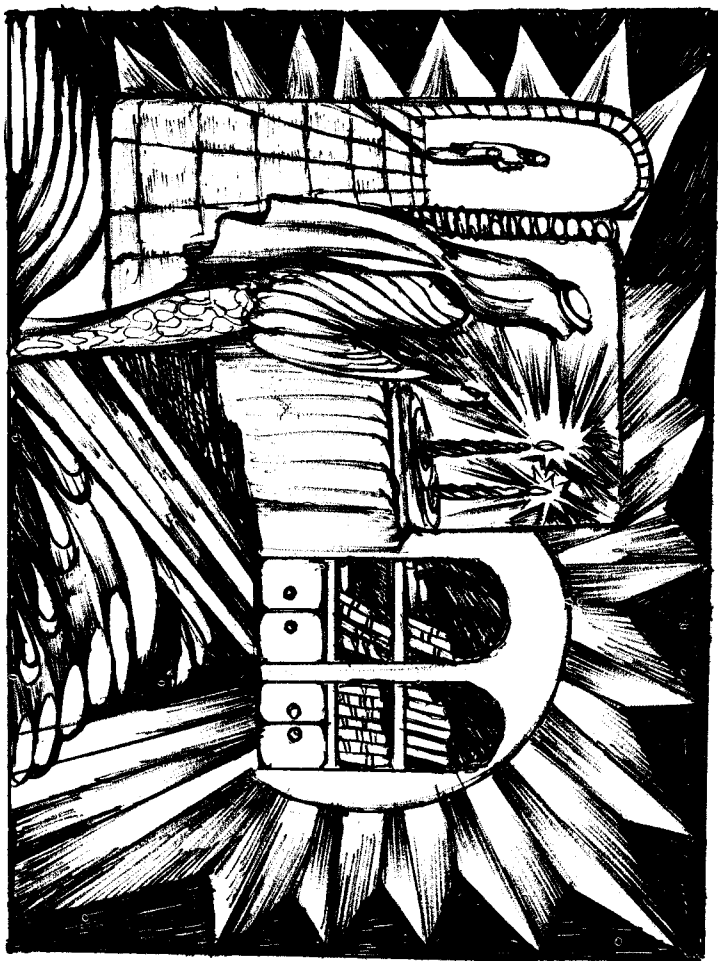
فى ليلة من لىالى الشتاء والرياح تعصف بشدة متناهية والظلام يحيم على تلك المدينة الهادئة والسكون يطبق على أحيائها وجميع ما بها من دور. كانت هناك دار تشرق فيها البسمة بقدم مولود جديد فيها... لقد فرح الوالد بهذا المولود الذى كان ثالث مولود له فى هذه الدار المتواضعة لم يكن ذلك الأب من ذوى اليسار بل كان رجلاً فقير الحال ومع فقره كان شديد الحرص على تربية أبنائه تربية صالحة ليسيروا فى الحياة السيرة الحسنة والطريق الأمثل.. وتمر الأيام بحرصه وشدة تعلقه بأبنائه وتعليمهم فحفظ أصغرهم الذى كان الثالث من بين أخوته القرآن وعمره لايزيد على أحد عشر عاماً فى كتاب الحى وتعلم القراءة والكتابة مما أثلج صدر والده وزاد من سروره وافتخاره به وتشاء قدرة الله على الابن الأكبر لتخطفه يد المنون وتبعه الابن الثانى بعد مدة وجيزة ولم يبق لذلك الوالد سوى ابنه الأصغر الذى زاد تعلقه به وحرصه عليه...

ولذلك فلقد حظى الإبن بعطف أبيه وأمه لأنه صار وحيدهما بجانب أخت له تكبره بسنوات وأعجب الوالد بنجابة ابنه وثناء أستاذ (كتاب) الحى عليه ولكنه كاد يطير لبه عندما أسر إليه الأستاذ أن بصر ابنه ضعيف... لقد فوجئ بهذا وزاد قلقه وكبرت مصيبتة ولم يدر ماذا يفعل. فالطب كان فى مهده ولم يدر كيف حلت هذه المصيبة فى وحيدة الذى أولاه من الحب الشئ الكثير. وبعد تعب وعنت شديد وكثرة استفسارات عديدة يقرر الوالد الفقير أن يرسل ابنه إلى مصر للعلاج ولقلة ذات يده ولما امتاز به ذلك العصر من طيبة وبساطة وحب للخير والتضحية من أجل الآخرين يرسل الوالد هذا الابن إلى صديق له هناك الذى هو الآخر تولى بحرص استقبال الطفل الذى لم يتجاوز عمره آنذاك الخامسة عشرة من العمر... لقد كان تأثير المرض على الوالد شديداً وأشد منه كان تأثيره على الإبن. انها مفاجأة وصدمة

كبرى لشاب كان ينظر إلى الكثير من الآمال العريضة التي يتطلع إليها ولكن
مالعمل وإرادة الله فوق كل شيء...

ويتردد الشاب على الأطباء ويتحدد موعد له في يوم معين في مستشفى كبير.
وتحين ساعتها للكشف عليه ويفاجأ بوجود أحد عشر طبيباً للعيون كلهم في انتظاره
ويبدأ الفحص من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثانية بعد الظهر والأطباء
يتناوبون هذا الشاب فحصاً ومعاينة وتدقيقاً حتى أصيب بالإعياء وتصلبت رقبته من
شدة تلك الساعات الطوال، ويجتمع الأطباء ويقارنون تقاريراتهم ببعضها ويقررون
بالإجماع أن لا علاج لهذا المرض عندهم. وهنا تعظم المصيبة في نفس الشاب ويسيطر
عليه اليأس ويأخذ القلق من نفسه كل مأخذ فالبصر قد ذهب رويداً رويداً وماذا
يفعل؟ وكيف يعود إلى أهله وعودته إلى والده تعني بقاءه في ركن لا يستطيع أن
يتحرك منه؟ إذ لا توجد يومها مدارس للمكفوفين في بلاده. وتسيطر عليه الحيرة
ويمضي أياماً عدة وهو لم يذق للنوم طعماً.. انها كارثة عظيمة وبلاء مستطير وفي
خضم متاهات تفكيره أشار عليه كثيرون أن يطلب العلم ويلتحق بالأزهر ففيه
المسكن والمكافأة التي يستعين بها على سيره في الدراسة وبسرعة استجاب لهذا الرأي
فيلتحق بالقسم العام الابتدائي بعد امتحان لجنة على مستوى كبير...

كان هذا في أوائل عام ١٣٥٢هـ وبعد القبول يفاجأ بمواد لا قبل له بها في
القسم الابتدائي فهناك شرح الكفراوي على الأجرومية وشرح الأزهرية ثم قطر الندى
وشذور الذهب والجواهر المكنون في البلاغة وغيرها من بقية المواد التي على هذا
النوال.. ولكن بتوفيق الله تعالى ثم بإصرار وعزم وكد ومثابرة مريرة وصبر وجلد
وتحمل مضت الأربع السنوات وعقد الإمتحان وكان النجاح باهراً لهذا الشاب البصير
ثم تلتها أربع سنوات أخرى للقسم الثانوي وبنفس الروح الوثابة والقلب الطموح
والبصيرة النفاذة يجتاز امتحانها بعد أربع سنوات أخرى ويحصل على الشهادة الثانوية
رغم ما حصل فيها له من قلق وحزن وألم وحرقة بموت والده حيث نقل إليه خبر وفاته
وهو في الثانية الثانوية ولكن مالعمل أيضاً وماذا سيعمل في والدته وأخته اللتين
بقيتا تنتظرانه وتتطلعان بشوق إليه وكان عليه أن يوفر من المكافأة ليرسل لهما ما يقتاتان



به فى الوقت الذى هو فى أمس الحاجة إلى هذه المكافأة البسيطة التى لا تكاد تذكر... المهم أنه استطاع أن يقاسى أنواع الحرمان ويقابل صنوفه بعصامية فذة ونفس طموحة أبية حتى حصل على الثانوية. وتسير به المسيرة نحو كلية أصول الدين بالأزهر وهنا وبعد القبول بها يثقل الحمل فى المصروفات والنفقات فيقرر أن يلتحق ببعثة بلاده التعليمية لكى يجد من المكافأة ما يستطيع به مواصلة المسيرة فى بقية سنوات دراسته. ومن عجائب الصدف أن تحدث المفاجأة السارة دون تعب أو مشقة فى هذا الموضع حيث كان هذا الشاب الطموح يسكن فى القسم المعد لسكن الطلاب وإذا به يفاجأ بحضور رئيس التفتيش بمديرية المعارف آنذاك إلى مصر ثم يصمم أن يزور الغرفة التى كان ساكناً بها وقت أن كان طالباً بالأزهر فإذا به يجد فى غرفته وفى مكان سكنه هذا الشاب العصامى فلما أن عرفه واستعرض موضوعه فاستلم الوثائق منه وواعده خيراً وبعد سفره بوقت كاف يأتى إليه خطاب يفيد بأن الالتحاق بالبعثة متوقف على نجاحه من الأولى إلى الثانية وهذا يعنى أن لا مجال من الكد والصبر والمعاناة لسنة كاملة أيضاً.. ويمر العام بكامله ويلتحق فى بداية الثانى بالبعثة وهنا يتنفس الصعداء ويسير فى الدراسة رغم القسوة التى امتازت به المواد فى ذلك الوقت... وفى صبيحة يوم غائم من خريف عام ١٣٦٩هـ كان اسم هذا الشاب الذكى من بين خريجي كلية أصول الدين بالأزهر ويومها كان انتصاره لنفسه رائعاً. لقد أحس بنشوة انتصار لا مثيل لها. أحس أنه قد حقق آمالاً ليس لها حدود فى نفسه فدفعه طموحه إلى أن يلتحق بتخصص الدعوة والإرشاد وهو تخصص بعد الكلية بستين فحصل عليه وعندها تذكر موطنه وطارت نفسه إلى بلاده التى غادرها منذ زمن ليس بالقصير ولكن وقبل السفر يفاجئه أحد أصدقائه بخطابه المؤلم الذى يفيد بقوله: لا تحضر إلى هنا فلا يوجد لك عمل لأنك كفيف. وهنا كانت مصيبتة كبرى وعمقها أشد ووقعها أليم ومحرق... انها مصيبة عظيمة وكارثة حطمت كل آماله وبات يفكر ويفكر. ماجدوى هذه السنوات الطوال وهذا الصبر والآلام والحرمان؟ ماهى الفائدة التى جنيها؟ وبماذا أعود وكيف أستطيع المساهمة فى خدمة بلادى إذا كان الأمر كذلك؟ ولكن بقلب ملىء بالثقة بالله تعالى ونفس راضية مطمئنة سكنت على مصيبتة هذه وبعد أيام قلائل من هذا الخبر الذى أطبق بثقله

المظلم على نفسه لولا شعاع يقين كان بداخله... بعد أيام أتى إلى مصر مدير عام المعارف آنذاك فزاره هذا الشاب وعرض عليه المشكلة فأوضح له أن لاصحة لهذا وطلب منه إنجاز أعماله وأوراقه ليسعى في تعيينه مدرساً... وهنا أشرقت الآمال من جديد و كاد يطير من الفرح لأن هذا يعنى أن مساهمته فى الخدمة ستكون كبيرة وأن سنوات الحرمان التى قضاها ستؤتى أكلها. وسيجنى ثمار كده وتعبه وصبره وجلده. وهو بهذا لن يكون رهين البيت ليل نهار وسيستفاد من علمه الذى أمضى السنوات الطوال فى تحصيله. وبقي هناك ينتظر صدور قرار التعيين. ويطول الانتظار وتضييق الأمور من جديد ويبدأ اختناق جديد ومشاكل معقدة أمام هذا الشاب الكفيف. فالداخلية تطالبه بالسفر ومغادرة مصر لأنه قد أكمل تعليمه والبعثة منعت الراتب لأنه قد تخرج وليس لديه مايسافر به وكيف يسافر والتعيين لم يصدر بعد؟ انها أمور معقدة. ولكى يفك هذا الاختناق التحق بتخصص التدريس وهو الآخر تخصص للطلاب المتخرجين من كلية الشريعة وأصول الدين يتحصل على شهادته بعد سنتين من التخرج من الكلية. وبعد التحاقه به وفى ذات مساء يأتى اليه ساعى البريد يحمل مذكرة تعيينه مدرساً بالمعهد السعودى بالمدينة ولكن لسوء الحظ وقبل وصول المذكرة هذه أرسل طلباً يطلب الموافقة على إكمال دراسته يتخصص التدريس الذى بدأه ومع غمرة الفرح بالتعيين تأتى عقبها بيومين مذكرة الموافقة بالبقاء حتى الانتهاء من تخصص التدريس وهذا تمضى السنتان وينال هذا الشاب الكفيف الشهادة العالمية من الأزهر مع شهادتى التخصص فى التدريس والدعوة والإرشاد بصبر وجلد وقوة عزيمة وإيمان راسخ ورضاء نفسى عجيب...

ومع بداية العام الدراسى ١٣٧٤هـ عين ذلك الشاب الطموح مدرساً بالمعهد العلمى السعودى الذى كان فى ذلك بمثابة جامعة بالبلاد لما به من مواد مركزة وعلوم غزيرة. وكان ثالث ثلاثة يحملون مؤهلات جامعية فى ذلك الوقت بالمدينة المنورة واحتل مكانته فى التدريس فى الصفوف العليا بالمعهد العلمى ومعهد المعلمين...

وخلال ثلاثة وعشرين عاماً قضاها ذلك الرجل الفذ العصامي فى التدريس يعلم ويشارك فى إعداد جيل المستقبل لهذه البلاد، كانت حصيلته كبيرة وكان

عطاؤه جماً وكانت تربيته موفقة لطلابه حيث علمهم الصبر والجلد ونهلوا من علمه
الغزير وتجاربه الكثيرة وإصراره وصبره وتحمله الشئ الكثير...

فهو يعتبر من القلة النادرة التي أقنعت الناس كل الناس بسيطرة شخصيتها بالعلم
والتعقل والأدب والأخلاق السامية والنبيل والصفات الحميدة حتى صار يغبطه
الكثيرون لسمو أخلاقه ورجاحة عقله وغزارة علمه...

وبعد هذا العطاء الخير خلال ربع قرن من الزمان وبعد تلك التضحيات والصبر
وتحمل أنواع المصاعب والعقبات يرى هذا الرجل أن الوقت قد حان لكي يستريح
من عناء خمسة وستين عاماً فيتسلم خطاب الشكر على ما بذل في سبيل العلم من
عطاء جم وتضحيات فذة مع الاعتراف بفضله أستاذاً للجيل ومعلماً من الطراز
الأول... إنه فضيلة الشيخ محمد سعيد أبو سيف.

عَشْرُونَ عَامًا
مِنَ الْإِنْتِظَارِ

عشرون عاماً من الانتظار

لا عليك أيتها الزوجة الوفية أننى أشكر الله تعالى الذى يعلم ما أنا فيه من صراع نفسى ومغالبة للحياة طيلة عشرين عاماً على زواجنا. ثم أننى أشكر لك ذلك الصبر الذى يتجلى فى كل لحظة تأفف ترينها طوال هذه المدة. أشكر لك صبرك وحنانك وعطفك ثم قوة الأمل فى الله تعالى الذى طالما ذكرتنى بما للصبر من جمال وبما للأمل والرجاء فى الله تعالى من قوة تربط العبد بخالقه وتجعله ملتجئاً إليه مستعيناً به فى كل نائبة من نوائب الدهر وفى كل مايحس به من مرارة الحرمان عندما تلهث نفسه مشاغل الدنيا وزينتها.

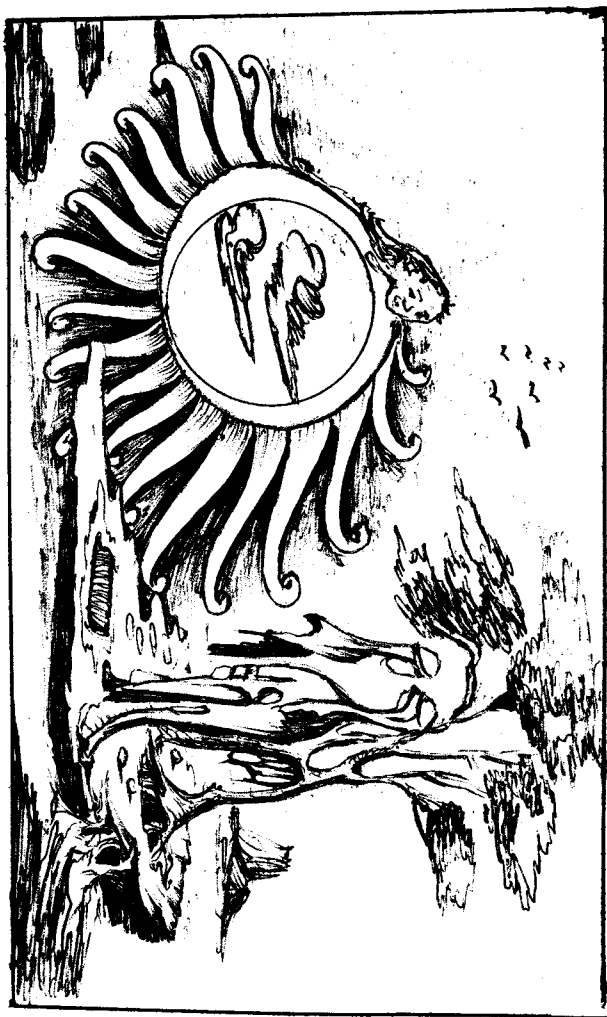
إن هذا اليوم وهذه اللحظات التى تتأملين فيها. هى بمثابة أول يوم فى حياتنا الزوجية التى بدأناها منذ أمد بعيد كانت السعادة ولا تزال تخيم على بيتنا الصغير ولا نحس لأن شيئاً ينقصنا. حقاً إن يومنا هذا ولحظتنا هذه تعلمين مدى انتظارنا لها وماعانيناه سوياً من أزمات نفسية من أجلها وكم كان تطلعنا إليها وكم أحدثت بيننا من سوء للتفاهم أحياناً ومن مناقشات وجدال فى بعض الأحيان. إننى اليوم أشعر بسعادة لاتوصف وقلبي يكاد يطير من الفرح وأحس فى نفسى أن كل شى أمامى يأتى إلى يحدثنى ويمارحنى وبالتالي يرفع التهئة والحب والتقدير لك ولى على ذلك الصبر الذى صبرناه وعلى ذلك الأمل الذى كنا على ثقة بأنه سيتحقق رغم تلك الكلمات التى كنت أستمع إليها من كثير من أقاربي ومعارفى لقطع حبل ذلك الأمل الواهم فى زعمهم.. ولكن على أى حال قد أصبح أملنا حقيقة واقعة وتبددت من حوله غيوم القائلين وعواصف المتكلمين وآمال المغرضين..

قال كل هذا وهو يجانبها على سرير المرض بالمستشفى وهى تتلوى من الألم وتحاول إخفاء ماتحس به من أوجاع لأنها تعرف حساسية نفسه وتعلم مدى تأثير تألمها عليه. وترى أن فى إشراقة يوم جديد وأمل قريب التحقق ماينسها كل ماعانت من

ألم وما أحست من حرقة ومرارة طوال سنين عديدة.. وفجأة وبينما هو يلحظ لونها المصفر ويخلق فى حركاتها الغير المتزنة ويتفحص قسما وجهها المكفهر أقبلت الطبية مسرعة وأمرته بالخروج من الغرفة وأفهمته أنه لابد من إجراء عملية لزوجته فى الحال وأن عليه الانتظار خارجاً أو الذهاب إلى عمله والعودة فى المساء إن أراد.. لقد وقعت كلمات الطبية منه فى أقصى أعماقه وأحس بأن نفسه تتمزق وأخذ يسأل نفسه ويحدثها حديثاً طويلاً وقد خرج مندهشاً وفى لهفة وغموض...

بدت استفسارات وتساؤلات ماشأن العملية ياترى؟. ومن أى نوع هى؟ ثم ماذا تعنى العملية فى حالة كهذه؟ ولماذا هذه السرعة فى كلام الطبية وفى حركاتها؟ لابد أن الأمر خطير. وقد يكون على غير ما قدرت له وماكنت أظنه. ولابد أيضاً أن كلام الأطباء الذين سبق أن عرضتها عليهم غير صحيح أو أنهم يخفون عنى الحقيقة ربما لمعرفتهم أولاً احساسهم بانقباض نفسى وما بداخلها من اضطراب وتعقيد. وهنا حانت منه التفاتة فإذا زوجته المسكينة قد أحاط بها الممرضات من كل جانب على سرير ليدخلن إلى جناح العمليات واندفع نحوها ولكنهن منعهن بشدة وسمع كلمات منهن لم يدركها هول الموقف فى نفسه وعمق التأثير فى قلبه. وعند باب غرفة العمليات لاحظ نظرة زوجته إليه أحس منها أنها نظرة وداع أو هكذا اعتقد لقد أحس بالفراق واضطربت فى نفسه لوعة وبكى بكاء مرا فى زاوية من زوايا ممرات المستشفى الكبير.. وصار يتلفت كل من يخرج من الممرضات من ناحية غرفة العمليات تلك يسألهن بتلهف ولم يسمع منهن سوى كلمات الاطمئنان التى يؤمن سلفاً بعدم صحتها وانما هى فى رأيه أسلوب اعتاده كل من يعمل فى المستشفيات...

ومرت ساعات وساعات وهو ينتظر كلمات توجه إليه من أى إنسان مهما كان شأنه فى هذا المستشفى الواسع الأرجاء الذى يوج بالغادين والرائحين. ولكن شيئاً مما يتوقع لم يكن وأخيراً توجه إلى شرفة بالمستشفى تطل على شارع عام وبدأ يحاول قتل ساعات الصمت وساعات الانتظار التى تكاد ترهق عليه أنفاسه. وهناك بدت غيخته تسرح فى استعراض المارين بالشارع وأنظاره تتطلع إلى كل شىء فيه محاولة منه للهرب مما يواجهه من واقع وما يحس به من ألم ساعات الانتظار الطويلة. ومع تطلعه شرد فى ذهنه إلى الماشى البعيد ودارت فى غيخته ذكريات مرت صورها تباعاً كأنما



قد سطرت فى سجل حافل من التاريخ. حقاً انه لايزال يذكر تلك الأيام الجميلة التى كانت فى بداية حياتها الزوجة الحافلة بكل معانى الحب والوفاء.. يذكر ذلك الحنان وتلك المودة الصادقة التى كان يجدها دائماً من زوجته الطيبة القلب الصافية النفس النقية الوجدان. لقد كانت هذه الصفات التى أحباها فيها بمثابة الجسر الذى عبر عليه فى الصبر والجلد أمام مهاوى وإغراء الكثيرين لكى يتزوج أخرى طلباً لإنجاب الأطفال، نعم عشرون عاماً مرت على زواجهما وفى كل يوم منها كان شديد التلهف لمراى طفل وديع يبدد ضياؤه تلك العتمة فى هذا البيت السعيد. كانت أمنيتها أن ينجا أطفالاً يملأ صراخهم كل ركن فى منزلها الذى أطبق عليه الصمت سنوات وسنوات. لقد أخفى هذه الرغبة عن زوجته عدداً من السنين وهى بدورها تعرفها فى نفسه كما تحسها فى نفسها هي وكانت مصدر إحساس وقلق بين الفينة والأخرى لدى كل منها. إن هذه الرغبة الملحة والتطلع التلهف للأطفال كادت أن تحدث فرقة بينها فى يوم من الأيام عندما عاد من عمله ذات مرة ووجدها واقفة على الباب وأوجس فى نفسه خيفة من ذلك الوقوف الذى لم يعتده منها ولكنها على الفور بددت ماانتابه من هواجس ومأحاطت به من شكوك عندما أوضحت له أنها تعيش مع عالم أطفال الجيران الذين تجمعوا أمام الباب ليلعبوا فى براءة وطهر وتسمع إلى مايدور بينهم من محادثات وتصرفات جميلة رائعة انه لا يزال يذكر تلك اللحظة التى تظاهرها بعدم المبالاة بالأطفال قائلاً: مالنا ولهؤلاء الأطفال؟؟ إن أصواتهم فى المنزل تملؤه ضجيجاً وصراخاً وعويلًا وتحيله إلى حركة صاخبة يقل فيها الهدوء وتنعدم الراحة. وعندما أجهشت بالبكاء المر. لقد عرف يومها أنها تعاني فى نفسها أضعاف مايعانيه وأنها بوقفتها تلك لمراقبة تصرفات الأطفال لاتساوى شيئاً أمام ملاحظاته العديدة وسرحان تفكيره كلما رأى طفلاً يسير مع والده وقد اشترى له حاجيات ولعباً ومحادثه ويلاطفه بين وقت وآخر.. ان منظر الأطفال فى العيد يشده شداً ويحيل سعادته إلى كآبة وحزن فى داخل أعماقه. ولكنه كان دائماً شديد الصلة بالله دائماً الدعاء له بأن يرزقه الله طفلاً من هذه الزوجة الوفية الصادقة يحس وجوده باكتمال سعادته فى منزله الوادع المطمئن. وكان كثيراً مايقبله أصدقاؤه ومحبه بحث بعضهم إياه على الزواج من أخرى وكان يتلقى كلماتهم بمظهر اللامبالاة مع احساسه العميق

بمدى تأثير مايقولون ومرارة مابه يتحدثون ومضت العشرون عاماً فى بدء الزواج و ذات يوم.. فجأة حدث ماكاد يطير له من الفرح عندما عرض زوجته على طبيب وأخبره بأنها حامل .. شىء مثير — للدهشة وباعث على الاستغراب. بعد عشرين عاماً من الانتظار يكون هناك حمل؟ ياله من يوم مشرق ذلك اليوم الذى سمع فيه كلمات الطبيب ترن فى أذنيه بهذه الكلمات التى لم يعتد سماعها وهذه البشرى التى طالما انتظرها. وقبل قول الطبيب هذا وأسرره فى نفسه ولم ييده لأحد ومضت الأشهر تبعاً وتسقط الزوجة مريضة ويطول مرضها وتأتى ساعة اشتداد الألم ويفزع إلى المستشفى ويدخلها فيه. وهنا تبدو فى ذهنه تساؤلات: ربما أن ذلك لم يكن حلاً؟ لماذا يقول الأطباء أنها بحاجة إلى عملية؟ وحتى إن كان حلاً ربما أفقدها وأفقد الحمل معها. على أى حال لا مجال للتفكير فى الحمل إن كان.. إننى الآن أريدها وحدها طيبة معافاة. ياإلهى التجيء إليك وحدك وأطلب منك العون وأنت الأعلم بكل شىء. ولكن لماذا لم تخبرونى بشىء؟ لقد طاللت ساعات انتطارى.. ماذا عملوا بها.. كيف حالها الآن؟ وتملكه القلق والحيرة وترك مكانه وصار يسرع يمينه ويسرة فى ممر المستشفى الطويل تكاد عيناه تخرقان باب جناح العمليات لتستكشف ماوراءه ويحس بأنه يريد أن يسأل كل أحد ولكنه لم يستطع.. وجف حلقه. وأسرعت ضربات قلبه وصار يمشى بسرعة لايشعر بها بل لايشعر بكل من يسير حوله. وفجأة تخرج ممرضة ويسمع صوتها يرن فى أذنه كأنه حلم:

أنت يا هذا.. أبشر فقد أتاك مولود ذكر.. وردد على الفور مولود؟؟ مولود؟؟ ولكن.. وأتى إليها مسرعاً وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه. ويقف أمامها وتنعقد شفثاه وتغطى الدموع عينيه قائلاً بصعوبة بالغة بعد أن جمع أنفاسه: وهى.. هى كيف حالها؟ وترد الممرضة على الفور غير منتبهة إلى مااعتراه من ذهول وما اختلط فى نفسه من صور الماضى البعيد وأحداث الحاضر الذى يعيشه.. ترد قائلة وقد أدارت ظهرها لتعود من حيث أتت: انها طيبة معافاة فلا عليك.. وهنا يترنح صاحبنا وسط ذلك الممر الواسع المليء بالغادين والرائحين بعد أن انحط العبء الثقيل عن نفسه....

قائلاً الحمد لله

يوم العيد

يوم العيد

كان إنساناً مع كل الناس مع كل ماتحمل هذه الكلمة من معنى. توفى والده وترك له أخوة صغاراً. بل ترك له أعظم مسؤولية ينوء بها عاتقه.. مسؤولية الرعاية وتحصيل معاش أخوة لاحول ولا قوة لهم فى طلب الرزق والبحث عن مصادره.. وفوق ذلك كله ترك له والده ديناً يسدده عنه لمحقيه... لقد كان حملاً ثقيلاً أنك قوى (فاضل) وهو الاسم الذى صمم الوالد على تسميته له يوم ولادته أنك قواه طيلة أربع سنوات مضت منذ أن غادر الوالد هذه الدنيا إلى مثواه الأخير...

ومن أجل ذلك تحمل الشاب منذ نعومة أظفاره كل صعب وسلك كل طريق وصد عن كل كارثة تعترض له فى الحياة.. أنه يدرك جيداً يوم أن توفى والده ولم يكن لدى إخوانه مايعولهم به.. لذا قرر منذ ذلك اليوم أن يعمل بمجهد وكد لايعرف الكلل ولا توهن عزيمته معوقات الحياة مهما كان نوعها..

لقد عمل فى أماكن عدة واستقر به المقام لدى مهندس للسيارات على شارع عام بالمدينة. عمل لا لرغبة فى العمل ولكن ليسد ثغرة كبيرة تركها الوالد فى حياة الأسرة بكاملها ومن أجل ذلك ترك المدرسة رغم كونه فى سنة دراسية نهائية ولكن ليس ثمة من مفر سوى أن يخوض غمار الحياة وينزل لمعترك خضمها العظيم.. كانت سنه يوم وفاة الوالد لا يتجاوز السادسة عشرة من العمر وذاق خلال المدة الماضية حلاوة الحياة وضائق به الحياة أخيراً إلى أن يصير لدى صاحب الورشة الذى طغى البخل على كافة أعماله ومعاملاته. فنفسه لا تخلو من لؤم وقلبه لا ينجو من حقد وحسد... حقد ليس على عماله فحسب بل على المجتمع بأكمله والدنيا بأسرها. يحصى الدقائق والساعات ويحسب لها ألف حساب فيحذف أجر كل ساعة تأخر أو غياب لمن يعملون لديه مهما كانت الأسباب والمسببات وكان أجر (فاضل) ضئيلاً جداً يتسلمه فى نهاية كل شهر يدفع نصفه لمعاش الأسرة ونصفه الآخر لسكنائها ولهذا



حرص الشاب على عمله حتى لا تمتد يد الجشع لتحسم أى قرش من ذلك الراتب
الفضيل...

يسرع إلى العمل فى الصباح الباكر ويعود إلى البيت فى المساء منهك القوى من
عناء وعمل يوم ملىء بالمضايقات، ولكن رغم ذلك كله لم تسر الأمور كما أرادها بل
حدث ما لم يكن فى الحسبان. ففى مساء أحد الليالى داهمت سيارة مارة (فاضل)
المسكين فى طريق عودته إلى العمل... داهمته وكسرت ساقه وعلى الفور أدخل
المستشفى ينزف دمه ويتلوى من الآلام... انها آلام المرض. وآلام أخرى تتضاعف
حينما يتذكر إخوانه الصغار فى البيت حول أهمهم وقد أقبل العيد عليهم وكل مافى
حصيلته قد صرف على الفور فى أدوية وعلاج ونحوه... انه يفكر تفكيراً عميقاً فى
مصابه وفيما هو فاعله مع أولئك الصبية الذين ستمر عليهم ساعات العيد مفعمة
بالأسى والحزن والحرمان.. وحتى والدته المسكينة كادت أن تجن حينما علمت بالخبر.
إذ خيمت سحابة الحزن على قلبها ونفسها فأمطرت عيونها دمعاً غزيراً مليئاً بالحرقة
والتأوهات الحزينة... ومرت الأيام تترى وفاضل يعانى مصابه بالمستشفى والأسرة
تعانى فقراً مدقعاً وحاجة عظيمة ماسة من العوز والفاقة. مر شهر الصوم بكامله وقبله
ثلاثة أرباع الشهر والشاب نزىل المستشفى وأجره قد انقطع من أول يوم لم يحضر فيه
إلى العمل.. وأتت ليلة العيد بكل مافيا من فرحة وحزن وسرور وحرمان. أتت ومع
محيثها أحست الأم بوطئتها العظيمة على نفسها مما دعاها إلى أن تسهرها منتظرة
الفرج من لدن حكيم خبير. ويشتد بها الحزن ويعظم الأمر حينما يسألها الصغار عن
ألوان الثياب التى سيرتدونها غداً مع أبناء الجيران وأى أنواع من الحلوى سيشاهدونها
فى منزلهم؟ وكم من النقود سيأخذها كل منهم؟ انها كلمات حرقة وألم وحزن وهوم
ليس لها حدود تسمعها الأم فى ليلة لا تملك شيئاً ذا قيمة بين جدران هذا البيت
الحزين...

أحس (فاضل) أن ليلة العيد قد أتت وتذكر كل شىء فى المنزل فتحس قدمه
فاذا هى قد التأمت قليلاً فقام من فوره وشد وثاقها جيداً وخرج من المستشفى على
مسئوليته.. خرج يلتمس فرج الله وعنايته العظيمة لايلى على شىء سوى أن يشارك

العائلة أحزانها وحرمانها. وبينما هو يسير فى الشارع فى ساعة متأخرة من الليل يتوكأ على عصا إذ قابله أحد زبائن (الورشة) الذين يعرفهم حق المعرفة والذين قد أحبوه لما وجدوا به من إخلاص وخلق وتضحية فى سبيل الآخرين. وعلى الفور استعان الرجل بالشاب فى إصلاح سيارته المتعطلة على بعد أميال من المدينة. فدهش الآخر وكأن شيئاً لم يكن به ويتناسى مرضه ويذهب معه ليصلحها ويعمل جهده ومعرفته فى ذلك وهنا تجود يد الرجل بأضعاف ما كان يتصور فاضل لتضحيته فى ليلة كتلك بحالته التى هو عليها. فيطير قلب الشاب من الفرح ويذهب من فوره إلى السوق ويشتري الملابس لإخوانه ووالدته وكل شىء لازم للعيد... ومع أذان فجر يوم العيد وبينما كانت الأم ساهرة العينين محطمة القلب مقرحة الأجفان فى زاوية خاصة من المنزل إذ دخل فاضل الشاب المكافح يمشى على ثلاث ومعه كل هدايا العيد وملابسه فتطير من فرحة العيد منذ الصباح الباكر.

ناقذة الضباع

نافذة الضياع

هناك فى الطرف الشمالى من المدينة وبجانب شجرة عظيمة والى جوار قصر أشم ربضت دار متواضعة تقطنها أسرة صغيرة... كان أحمد من بين من تضمهم هذه الدار. أنه أكبر فتى فى الأسرة ولشعوره بهذا لم يكن بالطالب الكسول ولا المتهاون ولم يكن فى يوم من الأيام أداة لنفسه تسخره لرغباتها، بل كان ذلك الفتى الذى تعرفه نفسه قبل كل شىء آخر. انه فى ماضى كان يفرض إرادته عليها ويجعل لها سياجاً لا تتعداه.

أما نتائجه الدراسيه فهى مشرفة بين زملائه ومحبيه طيلة دراسته الماضية.. ولكن فى ساعة ذهول ومع مرارة مايسمع أو يرى خرجت نتائج الامتحان ذات مرة بعد أيام عصيبة ولكنها فى هذه المرة على غير مااعتاد هو أو تعود الناس منه فى التقدم والفوز بالنجاح وإحراز قصب السبق بالأولوية بين زملائه أو أفراد فرقته ودهش هو نفسه وبدأت ساعة الحساب.

كان أحمد محباً للعلم ومكباً على دراسته يحرص على أن لا تفوته شاردة ولا واردة من كتاب أو درس إلا وقد ناجاها مراراً وتكراراً حتى إذا ماأعرضت عنه جملة أو استعصى موضوع على فهمه تناوله بقلمه حرفاً حرفاً تلخيصاً وتنقيباً وتحقيقاً فى مذكرات صغيرة وضع لها مكاناً أميناً بحيث تسمع دقات قلبه ونبضات فؤاده وهى أحب إليه من أى شىء آخر.

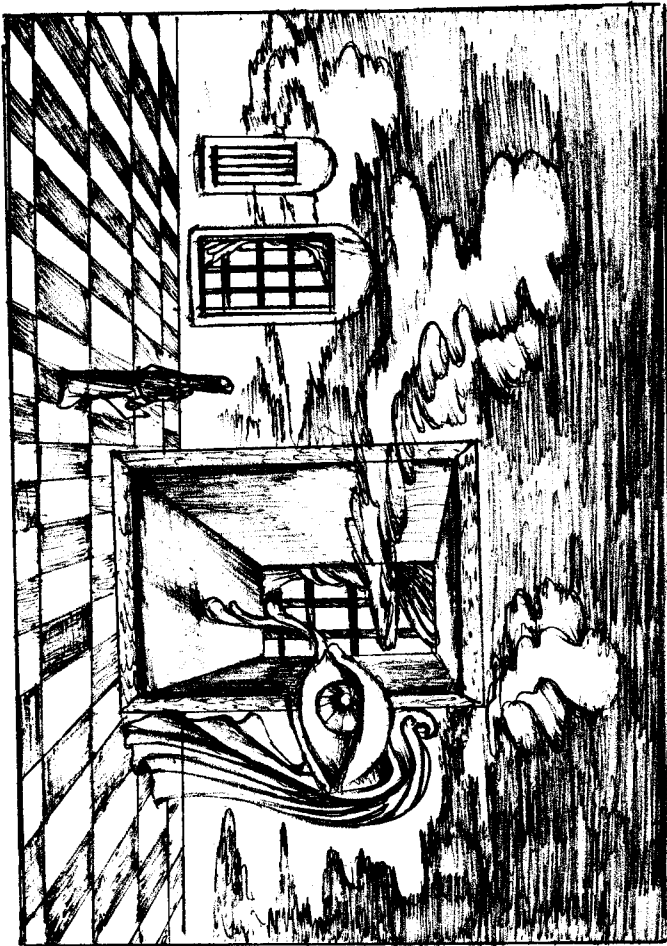
لم تكن السعادة لديه أكثر من إحراز نصره على موضوع يلخصه أو كتاب يقرؤه أو مسألة يتوصل بعد جهد لحلها.. ولهذا كان مرجعاً لزملائه فى كثير مما أدلهم عليهم أو أشكل على أفهامهم. وحتى أساتذته كانوا يعجبون لاكتشافه الأفكار والصغائر بين ثنايا أسطر الكتب لا تظهر إلا لمن أوتى صبراً وجلداً على التنقيب والبحث

المستفيض ويقدرّون جهده وأخلاقه ومرّحه. ويرون فيه معالم النبيل من الفطنة. وكذلك والداه كانا يحبّانه لحرصه على دراسته وكثرة اشتغاله بها فجهّزا له غرفة خاصة لدراسته بفرّاش وثير وأدوات مكتبية جميلة وساعة حائط كبيرة بجانب نافذة تطلّ على حديقة صغيرة.

لقد كانت هذه الغرفة مثالا للتنسيق وبها الإضاءة الكافية والجو الدراسي المريح. فإذا ما وصل أحد هرع لغرفته تلك وعاش بين كتبه وواجباته المدرسية ولا يخرج منها إلا لقرب موعد الغداء أو استقبال زميل عزيز عليه. وهكذا كانت دراسته. يستذكر دروسه من بداية العام الدراسي ويعتمد على ما حصله من معلومات مركزة في مذكراته الخاصة لمفاجأة الامتحان إذا بدأت القلوب منه تضطرب. ولذلك فهو يندهش حينما يرى بعض زملائه يتحدثون وجلين قبل الامتحان بأيام عن السهر والمذاكرة وصعوبة المواد وتعقيد المدرسين...

وتخرج نتائج الامتحانات في كل مرة ويحتل أحد مركز الصدارة بين زملائه الناجحين المتفوقين. وهاهو ذا يصل إلى مرحلة من مراحل دراسته الثانوية وكعادته يسير فيها بجد وإخلاص ومثابرة. وفي يوم من أيام الامتحان. وفي امتحان اللغة العربية بالذات وكان وقتها صبيحة يوم مطير حيث تنساب نسمة علية بين أزهار تلك الحديقة الوادعة يفتح أحد نافذة غرفته ليستمتع بهذا المنظر البديع وقد غاب عن ذهنه أن يومه هذا يوم امتحان ويجول بناظره ويتطلع من بعد فإذا بكيانه يهتز وترتعش فرائضه ويحدق بنظره ليرى من ذلك البعد نافذة مفتوحة وعليها قطعة قماش زاهية كالتى على نافذة غرفته.. وهنا بدأت أفكاره تصول وتجول ووجدت نفسه فرصتها للحديث والانطلاق...

يا إلهى .. ما هذا انه شبح خلف ستارة النافذة. بل فتاة.. نعم انها فتاة جميلة فارعة الطول صبيحة الوجه.. انها تبسم.. لقد أعجبتها هاهى ذى تناجينى بيديها بيعينها... يالها من لحظة سعيدة هاهى الستارة يطل من جانبها وجه كالبدرفى الضياء.. ابتسامة مشرقة.. أسنان كاللؤلؤ.. ما أجل تلك اليد التى تمسك بالستارة... وما أبهى تلك الوردة التى أراها.. ليتنى أمسك بيدى ذلك المعصم وأتلمس بأناولى ذلك



الجيد.. ليتنى فتحت النافذة قبل الآن لأعيش مع النظرات الحلوة لتلك الوردة التي
تخادعنى.. إننى أشعر بسعادة لا نظير لها...

ومع محاولة التعمق فى أبعاد هذه السعادة تهب رياح شديدة وكأنها صيحة انذار
لأحمد لتلقى قطعة القماش التي تاه فكره فيها جانباً ويتضح ماخفى وراءها..

وبالشدة هوله وعظيم مصيبتة حينما اكتشف أن بطل تلك المغامرة التي ألقته فى
بحر لجى متلاطم الأمواج على تلك النافذة البعيدة قطة صغيرة...

نعم انها قطة تلهو وتمرح فى ابتهاج وسرور فى لحظة حاسمة بالنسبة لأحمد.. لم
تعلم تلك القطة البريئة أنها قد جنت على أحمد ليعيد لأول مرة فى حياته سنة
دراسية كاملة.. وتثور ثائرتة وتضطرب العواصف بقلبه ويجن جنونه.. ويحس برنين
أجراس الخطر لقلبه منذرة إياه بالضياح...

وهنا يرجع بصره كرتين فينقلب إليه بالحسرة من ساعة الحائط الكبيرة.

لقد مضى نصف ساعة على بدء الامتحان...

ويشعر بالخيبة وبمرارة الموقف المؤلم وبقلب ممزق يسرع أحمد إلى المدرسة فيجد
الأبواب قد أغلقت ويرفض مدير المدرسة ادخاله إلى بهو الامتحان... وينصت من
بعيد ليسمع صرير أقلام زملاءه على أوراق إجاباتهم.

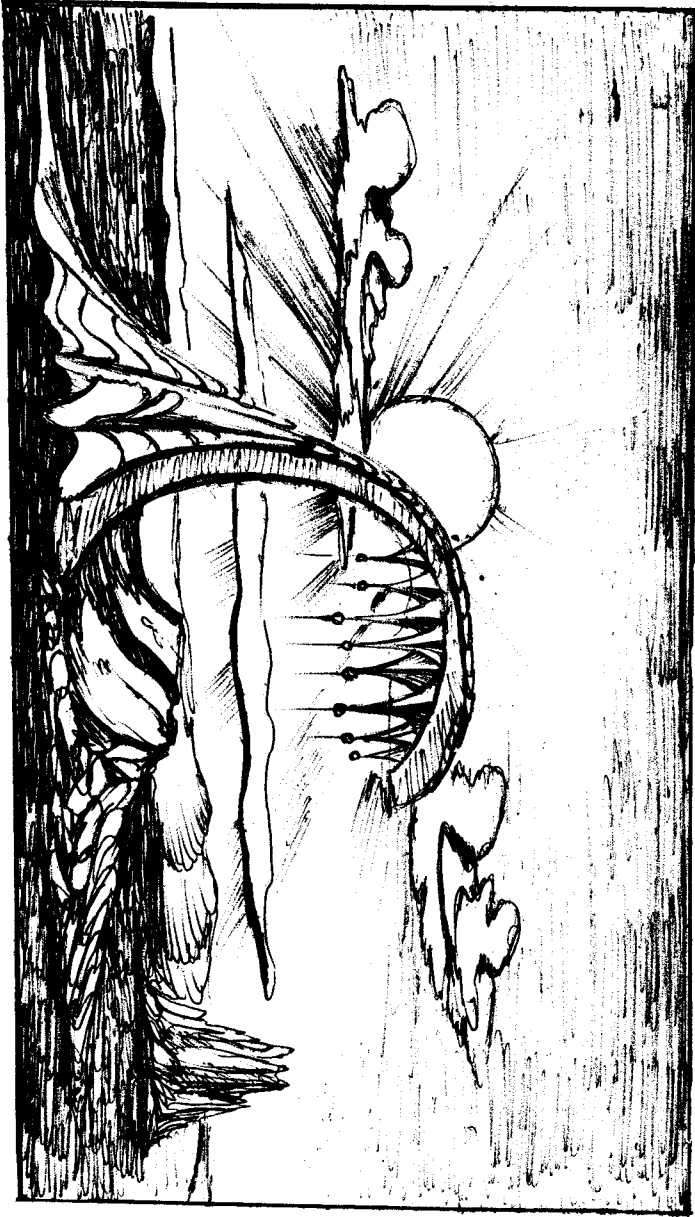
أني قد

أمنية وقدر

النفس البشرية عجيبة فى رغباتها وطموحة فى آمالها.. بודהا أن تستحوذ على كل خير وتشبع رغبتها من كل مايسر وبذلك تطلق عنان آمالها لتسيح فى الهواء. ولذا قد ترى المستحيل حقيقة تنسج بها خيوطاً حريرية فتفاخر غيرها وتتطاول عليه... ولكن أمام هذه النفس المسكينة قدرة عظيمة تطفى على كل آمالها وعلى جميع رغباتها. فتضع لمطامعها حدوداً لا تتعداها ولامالها قيوداً لا تتجاوزها... تلك هى قدرة الله الذى أحسن كل شىء خلقه... ذلك هو ماطفى على تفكير (صابر) رجل القرية التى ربضت على طرف واد سحيق وعلى سفح جبل أشم ربضت وادعة هادئة تستبشر بالنور إذا أتى وتطمئن إلى الليل إذا خيم. تغرد عصافيرها على غصون الأشجار مطمئنة بالهدوء والاستقرار والحياة الوادعة البعيدة عن الضجيج والصخب ولذا فأنغمها شجوة قرب المغيب تضى بها على القرية نوعاً من الإحساس بالجمال والشعور بآيات الفن والإبداع..

رجل القرية (صابر) صاحب الدار الفسيحة التى علت سفح هذا الجبل علو الحاجبين من العين. تطل نوافذها على غابة كثيفة من أشجار النخيل التى امتازت بها قرية واشتهرت بجودة ثمارها وصفاء نسيمها ورقته.

لم تكن الدار متميزة عن غيرها من بيوت القرية اللهم إلا بارتفاعها عما حولها مما أكسبها جالاً ومتمعة عندما تكسوها تلك الأشعة الرقيقة التى تمنحها لوناً عسجدياً جيللاً فى صبيحة كل يوم وعند الغروب. وبالقرب من باب هذه الدار وقف (صابر) يتأمل الجبل الأشم الذى مسحته يد الربيع. وقف يتأمل هذا المنظر البديع. أشجار مخضرة ونسيم عليل وجبل عظيم. وشمس مائلة نحو المغيب. لقد اعتاد مثل هذا الوقوف لإعجابه بمنظر الطبيعة من حوله وأمام هذا المنظر الخلاب والطبيعة الباسمة من حوله تراكمت أحداث مزدهجة فى فكر صاحبنا... ذهبت به أفكاره فى بحر لجى مترامى



الأطراف واسع الجنبات من ماضيه البعيد. ذلك الماضى الذى يحمل له فى قرارة نفسه كل حب وكل اعتراف بالجميل ومع إغراق فى تفكير عميق لم يلبث أن وجد نفسه صبيّاً يرتع أمام والديه الذين مات أعطفهما وأرقهما وأحناهما عليه منذ نيف وأربعين عاماً... وجد نفسه الصبي الذى لا مزاحم له فى العائلة والذى لا يفارق أباه لحظة واحدة مما أكسبه ميزات قلما وجدت فى مثل سنه فى ذلك الوقت...

كانت سلسلة الذكريات ترد تباعاً فى مخيلة صابر يجد فيها لذة ومتعة وبعداً عما قد يكدر عليه صفوه من متاعب الحياة وعقباتها.. ومع رغبته فى متابعة ما أراد.. قفزت إلى ذهنه عبارة طالما سمعها من والده الكهل فى كل مناسبة عبارة يقول فيها: (كأننى بك يا صابر وقد رزقت أولاداً ينسرون هذه الدار وينشرون عليها رداء السعادة). ومع احتلال هذا القول بؤرة التفكير من نفس صابر ومع رغبته الملحة فى الوقوف طويلاً أمام هذه العبارة المحبة إلى نفسه والقريبة جداً من قلبه حانت منه التفاتة بتحديد من غير قصد إلى تلك القمة الشاهقة ليرى من بعد ومن على القمة الشفاء شبحاً قطع عليه سلسلة أفكاره واحتل مركز الصدارة من نفسه وإحساسه وشعوره.

.. من على القمة الشفاء وبينما كان صابراً واقفاً يتأمل أطل عليه شبح إطلالة هلال اخترقت أشعته طبقات السحب... إنه هلاله هو.. إنه ابنه الوحيد الذى تربع على عرش قلبه فاحتل ما بين جوانحه من حب وعطف وشفقة ورحمة... ابنه الذى خرج منذ الصباح الباكر إلى هذا الجبل العظيم لكى يصطاد فيه كما هى عادته فى كل شهر مرة أو كلماً عن له أمرأاده... إن صابر يجذب هذه العادة ويمتدحها محاولاً غرسها فى نفس الصبي لإيمانه أن وحيدته يجب أن يكتسب من صخور هذا الجبل الأشم الصمود والثبات ومن نسيمه العليل الرقة والعذوبة. ومن طيوره المغردة الصفاء والطهر. ومن مياهه العذبة النقاء والحياة. وأن الحياة بغير ثبات واتزان وصبر وجلد لا معنى لها. وأن الحب هو عماد الحياة فيه استطاع هو نفسه أن يسود هذه القرية. إذ لا يضر كرهاً لأحد ولا تبطن يده بمخلوق قط. أحب الناس فأحبوه وصار مجلسه مأوى لكل من عرفه برجاحة العقل واتزان التفكير وتقدير الناس...

عماده فى قوله الصدع بالحق مها كانت مرارته. ولذلك كثيراً ما ارتضاه ذووا الخصومات حكماً فيما بينهم وهم قانعون بما يفرضه على كل منهم. بل كثيراً ما شدت إليه الرجال لهذا الغرض. فإذا ما جلس فى مجلس صار هو حكمه ومن ثم الفيته الرجل الذى لا تلين قناته فى الحق. ولا ترد كلمته. وإذا كان بين أناس فى مجلس فكااهة أو سمر رأيته ذلك الإنسان المرح المتفائل الذى يعبق جو ذلك المجلس بمجديته الطريف وفكااهته الجميلة وأفكاره النيرة وكلماته التى تحترق الحجب إلى صميم القلوب فتبادله الأخاء والحب والانسجام...

إلا أن قلب صابر الذى يبدو متدققاً بالحوية والتفاؤل والأمل لا يزال جانب منه قد مسه الضر وأحس بحاجة الملحة إلى ملئه بأشعة النور ليكتمل صفاؤه ويخضر جانبه فتشع طمأنينته ويستريح فكره.. ضر طالما خلا به إلى نفسه وفكر فى عاقبة أمره وخرج من خلوه باستغفار لله وتوبة.

صابر يتطلع إلى اكتمال زينة الحياة الدنيا أمامه قبل الممات. فالمال لديه ليس بأمر ذى بال ولكنه فى حاجة إلى الأولاد... الأولاد الذين تتألق الدار منهم نوراً ويزدان بهم. الأولاد الذين يذودون عن حماه ويحيون ذكره بعد مماته ويشدون عضد أخيهام هذا الذى أقبل... كانت أمنية صابر أن يرزق بأولاد يقيم لهم من نفسه معلماً. ويجعل لهم هذا الدار مدرسة يخرجون منها وقد أعدهم للحياة ليكونوا جميعاً يداً واحدة إذا ما اعترى خطب وكشرت الملمات عن أنيابها... ولكن القدر لهذه الرغبة كان بالمرصاد فقد أنفق الكثير والكثير من المال فى الزواج من النساء الواحدة تلو الأخرى ورغم ذلك كله كانت النتيجة حتمية بالنسبة له وهى عدم الإنجاب اللهم إلا وحيدة الأول من أول امرأة تزوجها.

لقد أمضى سنوات طويلاً وهو يفكر فى اليوم الذى يصبح لوحده فيه أخوة يعاضدونه ويناصرونه ويشاطرونه هذا الحب الجم وهذه الشفقة العظيمة من قلب صابر الملىء بالحب والرحمة.. ولكن دون جدوى ولم يلبث أن وجد اليأس إلى قلبه سبيلاً... اليأس الذى عاش صابر فى صراع معه داخل نفسه محاولاً أن يضيف عليه ثوباً قشيباً من التفاؤل والأمل مستنيراً بالإيمان العميق بمشيئة الله القادر على كل

شىء... وفى ذات يوم وبينما كانت الشمس ترسل أشعتها كالسهام ليحتذى كل شىء ظله وبينما كان صابر فى طريقه إلى منزله بعد أدائه لصلاة الظهر فى مسجد القرية استوقفه منظر لرجل وامرأة قادمين نحوه...

دهش صابر لما رأى عندما عاد من مسجد القرية إلى داره... إنه منظر محزن فى هذه القيلولة من أيام الصيف، ابنا سبيل رجل وامرأة. رجل نحيل الجسم فارغ الطول متصبب العرق قد علاه شحوب من أثر السفر وبرفقه امرأة وسيمة قد تعثرت قدمها من شدة التعب والجوع. انها مقبلان نحوه يبحثان عن مأوى يستظلان به ومكان يجدان به لقمة يقيمان بها أودهما لتساعدهما على مواصلة السفر... انها غريبان فى هذه القرية قد كسرت أجنحتها الغربية وبعد الطريق وعناء السفر وقلة ذات اليد...

وهنا لم يطل تفكير صابر. بل اندفع نحوهما... لقد رأى فى هذه الساعة فرصته لخدمة الآخرين... إن إكرام الضيف والمبالغة فى خدمته سجية ألفها منذ الصغر وعرفت عنه حتى دعى فى معظم الاوقات بها. ولا تكاد تمر ليلة إلا وكان البيت قد استأنس بضيف قد ضمه بين جدرانها يحس بعذوبة حديثه ويستريح لراحته..

اصطحب صابر الرجل والمرأة إلى داره حيث وجد فيه ليلة ممتعة كسيت بحلة قشبية من المرح والفكاهة مقرونة بجميل القول وعذوبة المنطق..

ومرت ساعات الليل تترى وهوى كل حى إلى مضجعه حيث طاف سلطان الكرى على عيون الأحياء. اللهم إلا عيون صابر اللتان قد أعلنتا جفوة لا مثل لها لذلك السلطان... وبالدهوة صابر عندما رأى ذلك السياج الذى قد ضرب بينه وبين الراحة والهدوء فى تلك الليلة... انها أشياء كثيرة لا يعرف كنهها ولا يعى حقيقتها دبّت إلى نفسه المسكينة التى أضمرت فى قرارتها أن هناك سرّاً خفياً لا يعلم مكنه ولا يكاد يبين... أنه قلق فى النفس وأفكار تتضارب كأمواج الخضم الزاخر.. وفوق ذلك كله هوة شاسعة لا ترى أطرافها. انه التفكير العميق وسط دائرة مغلقة فى وقت نشد فيه الأحياء الراحة... ومع ذلك التفكير الذى لا نهاية له دقت مزامير الحياة.. انها العصافير الصغيرة على فروع تلك السدرة الضخمة الرابضة بالقرب من الدار. رأت هذه العصافير فلول الظلام هاربة ففرحت بقدوم يوم جميل ملئ بالحياة

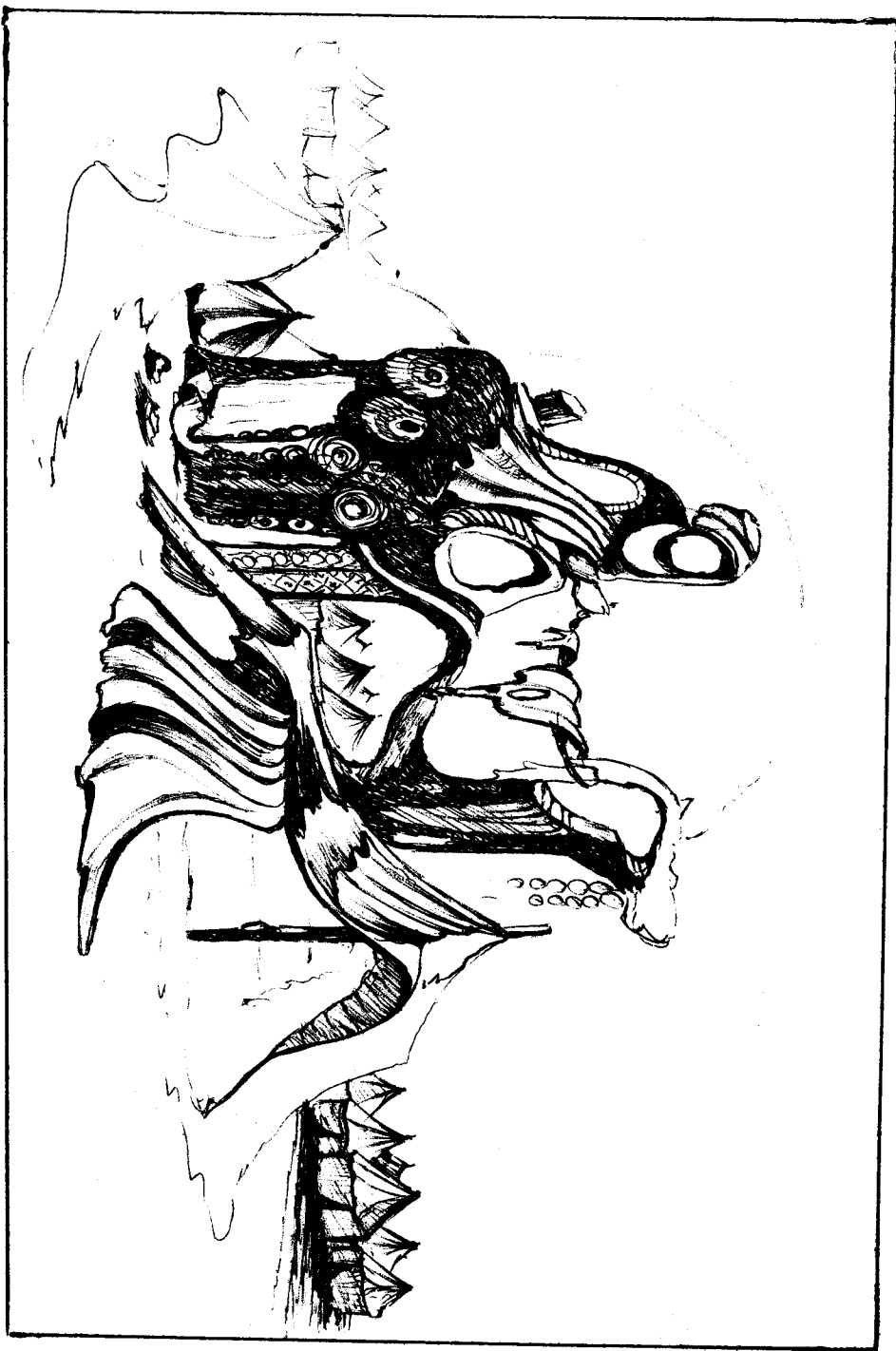
والأمل. أعجبها أن يظل نور مشرق ليفك أسرها ويتيح لها فرصة التحليق فى الجو الفسيح كما تشاء وحيثما تريد ...

أحس صابر أن الطبيعة فى منظرها الخلاب هذا قد أضفت على نفسه شيئاً قليلاً من السعادة التى ينشدها وعندها نهض من مرقد لم يذق فيه طعماً للنوم أو لذة للراحة. نهض فنادى ابنه الوحيد ليوقظه... لقد دهش حينما رأى ابنه جالساً على فراشه. ولم لا؟ وذلك الإبن قد اعتاد ألا يستيقظ إلا مع طلوع الشمس؟ ولم يكن بد من طرد الوسوس والشكوك حينما اكتشف الوالد أن ابنه صحيحٌ معافى.. لم يكن بد من الإعداد السريع للطعام لهذين الضيفين اللذين سيسافران هذا اليوم...

لقد برزت الحسنة من خدرها ومع ترنحها فى مبدأ بهو السماء خرج الضيفان — الرجل والمرأة — من بيت صابر الذى وجدا به الراحة وحسن الضيافة ماجعلها يضرعان إلى الله داعين له بالذرية الطيبة والأولاد الصالحين لتتحقق أمنيته بعد أن علما أن هذه رغبته وأنه لم ينبج سوى هذا الشاب الذى يبدو عليه الصمت وملامح الذكاء. خرج الضيفان وهما يشكران لصابر حسن العناية ومبالغة الإكرام بعد أن منحهما مايكفيهما من الزاد ودلها على أقصر الطرق وأسهلها لبلوغ مايريدان. وماهى إلا ساعات قليلة من سفر الرجل وامرأته وإذا بصراخ وعويل يملآن جوانب دار صابر ويثيران فى نفسه آلاماً وجراحاً وشجوناً لا نهاية لها. انها المصيبة والمحنة والبلاء.

لقد حلت المصيبة على صابر حينما رأى زوجة ضيفه عائدة إلى بيته مولولة باكية حزينة على زوجها.. لقد عادت إلى دار صابر مكسورة الجناح كأنما قد مست بضر... وأى ضر أعظم من قتل زوجها الذى أضحى فريسة لفكرة شيطانية أضاء لها إبليس مشاعلاً فى نفس ضعيفة عاجزة أوقد لها المشاعل ليحرقها لا لينيرها... أوقدها منذ الليلة الماضية فى نفس الشاب — وحيد صابر المضيف — لقد زين له الشيطان سوءة عمله وهون عليه قتل الرجل والنيل من المرأة..

لقد أعجب الفتى بمنظر زوجة ضيفهم وهام بوسامتها منذ أن رآها. ولذلك أبرمت نفسه الشريرة أمراً وبني له شيطانه قصوراً فى الهواء وهمس فى أذنه أن دخول تلك



القصور والاستمتاع بها موكل بقتل ذلك المسافر والاستحواذ على زوجته الشابة الوسيمة النضرة تعقب الشاب طريق المسافرين ووجدهما قرب غدير تنعق غربان الصحراء من حوله وسرعان ما انقض على الرجل انقضاض الأسد على فريسته فقتله ومن ثم أغار على المرأة مهدها إياها بما أوحى إليه شيطانه.. ولكنها تجلدت بالصبر واللامبالاة بهذا الحدث لتطمئن نفسه بعد أن أخبرته برغبتها الملحة فى الزواج منه وواعدته بأنها ستعود من وقتها إلى والده وتخبره بأن ذنباً أغار على زوجها فقتله. وعندها تنفس الصعداء وعاد من حيث أتى...

نظرت المسكينة إلى زوجها ودماؤه قد صبغت حصباء ذلك الكثيب وتسربت خفية إلى ماء الغدير الرقاق لتشهد بسوء الجريمة وفداحة الخطب وجل المصاب.

وجدت أن زوجها جثة هامدة لا حراك فيها. فجن جنوبها وعادت إلى بيت صابر تسابق الريح خوفاً ووجلاً وبمراة الصبر وعذاب تجرعه أفضت إلى مضيغهم بكل ما حدث وأخبرته بأن ابنه قد هدها إن هى قالت الحقيقة... لم يكن صابر يصدق أذنه بما تسمع. كانت كلمات الفتاة تقع فى نفسه موقع الألم والحرقه. وأصيب برعدة شديدة ثم أغمى عليه بعدها...

قام صابر من إغمائه تلك وتعمق بتفكيره فى أغوار الحقيقة المرة التى لا مفر من مواجهتها. وعندها وجد أن هذا الشاب هو ابنه الوحيد الذى هو نصيبه من الأولاد مافتيء يتطلع إلى مستقبله وافتخاره به وحاجته إليه ثم هو يتطلع إلى ذلك اليوم الذى تشرق فيه الشمس وقد سعد بأنوار طفل جديد يملأ حياته سعادة وطمأنينة وفرحاً... لقد حرص على ذلك وتزوج عشراً من النساء بحثاً عن الأولاد ولكنه لم يشأ الله له بما أراد وصار هذا الشاب أول طفل يراه ويمتل من نفسه وقلبه كل ذرة فيها...

وبجانب ذلك كله رأى صابر أن شرفه ومروءته وكرامته ودينه تأبى هذا العمل مهما كانت التضحية. ثم يقف حائراً بازدراء حينما يتبادر إلى ذهنه أن يترك هذا الابن المستهتر الذى أغار على ضيفه إغارة الأسد الضارى بعد أن خرج من بيته وأكل من طعامه... وبالطبع بعيد هذا عن رجل كصابر وضع نفسه فى هذا الأمر قاضياً

فى محكمة لا ترحم لتعدل ولتصدع بالحق مهما ادلهمت الخطوب. وتشعبت الآراء.

وفى الهاجرة أتى الشاب إلى البيت وقد غيرت معالم وجهه بشاعة الجريمة. ولكن الوالد الحكيم تظاهر باللامبالاة وأن مايمهم فقط بالنسبة له هو مواراة الجثة ليس غير.

وسرعان ماسار صابر وابنه إلى مكان الجثة ليواروها...

انها المصيبة التى أطبقت بيد من حديد لتضع صابر فى واقع مرير لا مفر منه... وفى مكان قد زادت وحشته وبشع منظره أخذ الشاب يحفر قبراً عميقاً بأمر والده وإرشاده. وحانت من صابر التفاتة إلى الجثة الهامدة ولم يلبث أن أطبق على ابنه فى داخل القبر حتى قتله. لقد قتل وحيدة داخل هذا القبر العميق ليطمئن نفسه ويرضى ضميره وليشعر تلك العاطفة الأبوية المسكينة أنها لا تساوى شيئاً أمام كرامته وشرفه ودينه... لم تتوقع الفتاة هذا العمل من صابر ورأت فيه شخصية تمتاز بالصمود والحرص والوفاء والتجمل والصبر... وهنا عاد صابر بهذه المسكينة إلى داره ليكرمها ويواسيها بعد مواراة الجثتين فى قبر واحد، عاد إلى الدار وفى النفس مافيا من لوعة وحرقة وألم... ثم يلزم نفسه بإيصال الفتاة إلى غاية سفرها ولكنها بمثل قوته وتصميمه أصرت على أن تبقى بجانبه وترتضيه زوجاً لها بعد موافقة أهلها وانتهاء عدتها. وماهى إلا أشهر قليلة حتى أعلن الزواج فى القرية وبدأت السعادة تقترب من صابر ثانية لتضىء داره بجانب ذلك السفح وهنا تبدو المعجزة.. انها لمعجزة بحق أمام الطاقة البشرية ولكنها أمام القدرة الإلهية بسيطة لا تذكر.. أتت لتشعر صابر ألا يأس من رحمة الله ولا مفر من قضائه وقدره... لقد أنجب صابر بعد طول انتظار. لقد رزق بولدين بعد تسعة أشهر فقط من الزواج هذا. وتمر السنين ويرزق صابر بتأمين آخرين وهكذا بلغ أولاده العشرة بعد عدة سنين.. وهنا تمر ساعة بصابر من أعظم وأجل ساعات السعادة رأى من خلالها الحياة والنور... رأى معنى للحياة يسطع داخل نفسه. ونظر إلى أولاده العشرة من حوله فأدرك أن أمنيته قد تحققت وأن صبره قد أثمر وأن إرادة الله وقدرته لا تقف عند حد لذلك سجد لله شكراً وتعظيماً...

المعطف المشوي

المعطف المشئوم

أى معطف مشئوم أنت... وأى بلاء قد كساك... وأى يوم نحس أدخلك هذه الدار؟.. إنك لم تكن مظهراً للفرح بل كنت مصدراً لحزن عميق وفراق ليس له نهاية.. لقد أزعجتني أيها المعطف وكنت سبب شقاء حياتي وحياة آخرين غيري، صحيح أنني كنت معجباً بك وكنت انت مبعث اعتزازي وفخر لى فى يوم العيد الذى ارتديتك فيه وكانت فرحتى بك لا توصف حين تصدرت المجلس بين رفاقى فى ساعة من ساعات اللقاء وأنا أرتديك.. ولكننى لم يدر بخلدى أن تلك الساعة من الفرح يتبعها شقاء دهر وفراق من أحبيته من كل قلبى بسببك أنت أيها المعطف النحس.

وقال هذا وهو يجهد بالبكاء ويحس بحرقه ليس لها وصف وقلبه يكاد ينقطع وأنفاسه تكاد تحتنق. قال هذا وهو يتأمل البيت الذى أظلمته فيه السعادة وضربت عليه أجنحتها فترة من الوقت ذهبت من عمر الزمن وأصبحت حلماً من أحلام الحياة... هذا البيت الذى أحس فيه سعيد أنه سعيد حقاً. عرف معنى الحياة التى تظللها دوحة الحب الوارفة.. لقد عاش عمره الماضى الذى لا يزيد عن خمسة وعشرين عاماً وهو فى حياة قلق ومعيشة مضطربة وأعصاب حادة لا تتحمل أى شىء يراه مخالفاً لما تريد أو تترتاح إليه. ولكنه حينما ضم إليه زوجته — أم أين — فى هذا البيت الوداع وأحاطته بجها ورقة قلبها وحنانها وأحس من قلبها الطيب كل معانى الحياة الهادئة المستقرة ارتاحت نفسه إليها وصارت حياته مليئة بالهدوء والطمأنينة.. لقد علمته (أم أين) كما يسميها فى مداعبته لها معنى التعقل ومناقشة الأمور فى موضوعية وواقعية. كانت دائماً تقاوم كل ثورة فى نفسه وتحد من غليانها كى لا تنقض فتحرق أعصابه حتى خفت حدته وصار إنساناً يحس بكل معانى الإنسانية.. المحبة.. المسالمة.. وهو دائماً يذكر ذلك لها ويشعرها أن الفضل فى تخفيف حدته تلك



التي نشأ عليها منذ الصغر يعود إليها بعد الله. وكثيراً ماحدثها عن منشأ هذه الحدة وتلك الشورة في نفسه وماجبل عليه منذ صغره ودور مامر عليه من مشاكل وأحداث في حياته من جرائها.. سنتان مضتا على زواجهما ومرت أيامهما كأنها حلم من الأحلام في نفسه. لها لذة وممتعة حينما يتذكر تلك الساعات. ولم يذكر أى ساعة فيها كانت مصدر إزعاج أو نفور بينه وبين زوجته — أم أيمن — لقد عرفته حق المعرفة واستطاعت أن تصنع السعادة في هذا البيت وأن تجعل منه إنساناً مرحاً محباً للتفكه معها حتى غطى مااختار لها من اسم — أم أيمن — على اسمها الحقيقي في نفسه. وصار يناديها به على الرغم من انها لم ينجبا بعد. وهو الآخر كان يرى فيها كل الناس. ويرى أنه سعيد حقاً حينما وفق للزواج منها. ولا تزال تتردد على سمعه بين كل لحظة سعادة وأخرى تمر عليها كلمات أخيها سمير زميل صباه ورفيق عمره وصاحبه على مقاعد الدرس الذى ذكر له من أخلاقها وصفاتها ماشجعه على خطبتها من أبيها حتى تم الزواج ولهذا فحبه لسمير وإخلاصه له قد فاق كل تصور لأنه كان مصدر سعادة له بانضمام هذه الإنسانية إليه.. سنتان مرتا وإخلاصهما لبعضهما فى ازدياد وكلاهما ينتظر يوم الفرحة الكبرى فى قدوم أول مولود لهما الذى اتفقا على اسمه وطريقة تعليمه. ينتظران قدوم — أيمن — الذى رأى سعيد أن يسمى به مولودهما الأول فى هذا البيت السعيد.

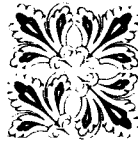
لقد كان هناك اختلاف بينها على اختلاف الاسم وذكرت يومها كافة اخوانها لتسميته بأحدهم واستقر رأيهم أخيراً على هذا الاسم فقط دون غيره نزولاً على رغبة سعيد نفسه. ولكنها نسيت أن تذكر له اسم أخيها من أبيها الذى لايزال يدرس فى بلاد بعيدة منذ أربع سنوات ولم يتمكن من حضور حفل الزواج. وقد استقر فى رأى ومخيلة سعيد أن كل العائلة هم مارآهم ليلة زواجه من زوجته وحتى سمير لم يذكر له أخاً من أبيه. ولكنه سمع مرة منه قوله أن صالحاً سافر لإكمال دراسته فى الخارج وحالت مشاغل الحصة فى تلك اللحظة عن سؤال سمير من هو صالح هذا؟ ومرت السنوات على هذه الجملة، وهى لا تزال فى عالم النسيان فى ذهن سعيد.

وفى صباح يوم من أيام عطل الأسبوع أحس سعيد من زوجته رغبته الملحة فى

زيارة أهلها وحاول إقناعها بتأجيل ذلك إلى عطلة الأسبوع القادم ولكن بدون جدوى ونزولاً عند إلحاحها خاصة وقد بلغ حبها منه مبلغه ذهب بها إليهم وأقام عندهم يومه وتركها لديهم لمرض رأى أنها تعاني منه أدرك خلاله أن موعد قدوم مولودهما الأول قد قرب. وحينما ودعها بحب وحنان وتمنيات ليعود إلى البيت وليتمكن من الذهاب إلى عمله فى اليوم الباكر حانت منها التفاتة رأت فيها أن معطف سعيد قد تمزق طرفه عند نزوله من السيارة وأوصته مترجية ألا يترك معطفه دون خياطة حال رجوعه إلى البيت حفاظاً على صحته من أذى البرد فوعدها أن يفى بما أوصته به. وفور عودته إلى البيت أخذ يبحث عن مكان الإبرة ليخيط ماتمزق من معطفه إنه يعرف الخياطة لأن أمه قد ماتت وهو صغير. وجد فى البحث فى أثاث زوجته وفى حقيبتها وهنا كانت الكارثة.

لقد وجد فى حقيبة — أم أين — صور لعدة أشخاص أخذ يتفحص واحداً بعد الآخر ويمعن فى صورهم. انها صورة أبيها واخوانها وصورته معهم ولكن من هذا؟! صورة إنسان آخر غير هؤلاء. انه الوحيد الذى يبدو ضاحكاً من بين هذه الصور ترى من هو؟ لقد أظلمت الدنيا فى عيني سعيد وصار يهذى بكلمات وكلمات ترى هل هى خائنة؟! فعلاً ان حبها يبدو كذباً وخداعاً وهتاناً وزوراً.. يالها من فتاة كاذبة مخادعة. سنتان وأنا مخدوع بها مغتر فيها راضخ لكلامها المعسول وضحكات المزيفة.. مامعنى أن تبدوا صورة هذا ضاحكاً من بين هذه الصور؟! ثم من هو صاحب الصورة؟! إننى لم أره فى بيت العائلة اطلاقاً على كثرة معرفتى بهم لا بد أنها خائنة قد أحببت إنساناً آخر وكل ماتبدى من حب مزعوم ليس صحيحاً إذن فأنا مخدوع مغفل أمام إنسانة كهذه.. كل هذه الوسواس وغيرها قد مرت فى لحظة أمام سعيد وبشورته وحدته القديمة رمى المعطف جانباً وأخذ ورقة وكتب طلاق زوجته البريئة الهادئة الوداعة وفى الحال امتطى سيارته وذهب بورقة الطلاق إلى أهل زوجته وعند الباب وبعد أن سلم الورقة لوالدها ووضعها الوالد فى جيبه ولم يدر مافى داخلها وبوجه ملئ بالبشر وبقلب يكاد يطير من الفرح قال الوالد لسعيد أبشر ياسعيد هذا ابنى صالح أتى من الخارج وقدم إلينا ابنك المنتظر — أين — ولذا فبيتنا الآن به ضيفان

عزيزان علينا. وهنا فى لحظة من لحظات اليأس والشقاء أدرك سعيد أن صاحب
تلك الصورة الضاحكة هو صالح هذا الواقف أمامه على عتبة الدار.



عذاب الضعير

عذاب الضمير

قال بصوت متهدج ونبرات مبجوحة: إننى أعيش فى العقد السابع من عمرى
عشت دهرأ طويلاً رأيت من خلاله صوراً هى فى واقعها عناوين لسجل حافل
بالذكريات ملئ بالعظات....

ألتفت خلفى فأرى أياما مضت أتمنى عودتها لولا أن بها مواقع قاتمة أكره عودة
الأيام من أجلها..

إن أيام الشباب جميلة ومليئة بالمفاجآت ولذلك بودى أن أعيشها ولو لساعات أو
لحظات... إن صورة تمر بذاكرتى من أيامى البعيدة تكبر مع الأيام أرى فيها شبحاً
عظيماً يرهبنى بل ويخيفنى.. شبح يزداد مع الأيام كبراً.

ودعنى فلا أطيل عليك.. كنت إنساناً أحب الحياة وأرى فيها غايتى.. كنت أقول
بل أؤمن (بأن المال هو الرجل) وكذلك أؤمن (بأن الغاية تبرر الوسيلة) ولذلك عشت
دهراً وراء هذا القول مقتنعاً جازماً بصحته.. كنت أحب المال حباً جما وأنظر إليه
نظرة المحب الذى لا يفرط فى أى مبلغ زهيد منه.. أمكث الساعات الطوال من أجله
وأذكر أن ثوباً واحداً كنت ألبسه لأعوام عديدة. وحتى زوجاتى الأربع اللاتى
تزوجتهن تباعاً قد مسهن الضر وذقن مرارة الحرمان وشدة التصبر.. وأبنائى لا أذكر
يوماً أن يد أحدهم لامست قطعة نقود على الإطلاق وكل هذا لا أحفل به لأن وقته
قد مضى وواتت ثماره رغم مرارتها ولكننى لا أزال أذكر بمزيد من الأذى والتحسر
تلك الليالى القارسة البرد الشديدة الرياح المطيرة عندما انفتحت نافذة غرفتى لأرى
طفلاً يتلوى من البرد فى ركن منزو وتحت جدار خرب... رأيت ملامح الحرمان وذل
اليتيم وصور الفاقة.. رأيت دمه يسيل على وجنتيه بغزارة... كل شئ فى تلك الليلة
يبدو صامتاً.. كانت نظراته تنزل على وتمس قلبى الذى تحجر ساعتها.. نظرت إليه

بوجه غاضب وعيون يطير منها الشرر وأغلقت النافذة فى وجهه.

كان مظهر بيتى رغم بساطته قد أغراه بوجود الدفء والابتسامة... تركت هذا الحدث وأسلمت نفسى للنوم وبالشد ماراعنى ليلتها.. لقد رأيت حلمًا مخيفًا.. رأيت الشاب نفسه يأخذ عصا ويضربنى ضربة فى قلبى وأنا أطلب منه المزيد لأموت ولكنه يأبى وهذا ماحدث..

قت مرعوباً أفتش عن الشاب فلم أجده وكأن الليل قد لفه بردائه الأسود وأخفاه بين ثنانيا لفافاته واحتضنه فى جوفه.. عدت وفى نفسى لوعة وأسى وأقسم سلطان الكرى ألا يلامس أجفانى بقية الليل كله وكأنه رأى نظرتة الضيقة المحدودة لنفسى فأراد أن يذيقنى بعضاً مما يعانىة الآخرون..

كانت صورة الطفل أمامى لا أنفك من مشاهدتها حتى أقبل ضوء الشمس متخللاً النافذة لينح الكون بما فيه غرفتى نوراً ساطعاً لا بخل فيه ولا تردد.. وحتى فى النهار الملئ بالحركة كانت الصورة تلاحقنى وأنا منها وجل.. لا أدرى كيف استأثرت هذه الحادثة على تفكيرى وطغت على غيرها فى عالمى مما هو فى ذهنى وبين أحاسيسى ومشاعرى.. وقاسيت من أجلها آلاماً نفسية بقيت عالقة فى ذهنى فى كل وقت..

ومما يزيد الطين بلة أن هذا الطفل أعرفه يتيم طمع فى إحسانى ولاذ بجوارى لعلمه أن هناك صلة قربى تربطه بى.. ولكننى كنت يومها أعيش على مظاهر المادة والجاه والسلطان.. وكان البخل قد أحكم وثاقى وأرغمنى على السير فى ركابه بإيعاز فى نفسى الشحيحة وقلبى الملئ بالخبث والبغضاء والحقد لبنى البشر عامة.. وهذه الحادثة قاسيت منها الكثير وبقيت عالقة فى ذهنى منذ سنين عديدة.. المهم أننى تتبععت أخبار الفتى بعدها وتأكدت أن إنساناً دفعته انسانيته ودينه لإنقاذ ذلك الطفل مما هو فيه ورسم له الطريق ليضى فى الحياة.. وهاهو الآن رجل فى عداد الرجال قد لا يذكر كثيراً من ماضيه وهو متطلع لمستقبله.

وصدقنى أن ذلك الطفل هو ابن أختى وأنا الآن عالة عليه.

عروف في الرماد

حروف فى الرماد

كانت (حياة) فتاة غضة الإهاب فارعة الطول شاحبة الوجه قد التفت بلبس خشن وثياب رثة قد أحاطت بها عباءة مرقعة.. كانت تتستر بالأزقة الضيقة لتبحث عن لقمة العيش.. إنها تعمل لدى نساء الحى. تركها أبواها فى كوخ صغير وتوفيا وخلفا بجانبها طفلاً أحاطته والدتها بعنقها فى مرضها الذى غادرت فيه إلى دار الآخرة.. لقد أحبت (حياة) أخاها حباً جما.. انها تستأنس به وتداعبه وترى من خلال ابتساماته البريئة المستقبل الذى ينتظره والعبء الثقيل الذى تنوء به... لقد بكت كثيراً لأن البكاء تجد به تنفيساً عما تقاسيه من اللوعة والحمران.. كانت تتركه وتخرج كل يوم إلى ربات البيوت لتعمل لديهن وتأخذ مقابل عملها ماتقيم به أودها وتطعم أخاها.. إنها تسير إلى عملها كل يوم بين بيت وآخر وقد صمت أذنها وأغمضت عينيها عن كل ملاحظة من اشمزاز نفوس تراها فى منظرها الموحش وحركاتها الهزيلة.. انها تقابل كل ذلك بسرحان عميق ولا مبالاة متناهية..

تسير فى طريقها وعندما ترى مالا يعجبها أو تلاحظ ما يضايقها تتظاهر بالغباء والبله وكثيراً ما همست إلى نفسها وتساءلت لماذا كل هذا العناء؟! وما معنى أن لا تشقى الأخريات سوى؟! ولكنها سرعان ما تعود إلى رشدتها وتستغفر الله وتسال المعونة والتوفيق.. تسأله أن يقيض لهل من يعينها ويعطف عليها ويسهل لها طريق السعادة بعد أن تنكر لها جميع من يت إلى أبيها بصلة لا لشيء طبعاً سوى أنها فقيرة معدمة ولو اقتصر الأمر عليها لسهل ولكنها تحمل أخاها الصغير ابن الستين.

ولذلك فهى تشقى بالنهار وتحلم بالسعادة فى الليل. بل تسبح فى بحر خضم من الذكريات والآمال والآلام.. إنها تريد الحياة وتضطرب لها ولكن كيف؟!

لا تدرى ماذا تعمل ولا من أى باب من الأبواب تلج. هل تصبر على هذا الحال؟! أم أنها تبقى فى كوخها وتموت جوعاً؟! ولكن ماذا تعمل بهذا الصبي

الصغير الذى يملأ صراخه أرجاء هذا الكوخ؟! .. ما أسعدها إذا ابتسم وما أشقاها إذا ناداها: ماما.. ماما.. لأنه لم يعرف غيرها ولم تر عينه سواها.. لقد نخل جسمها واصفر لونها ولم تستطع الحراك فى يومها لمرض ألم بها.. ومع مرضها الذى استمر أياماً زاد صراخ هذا الصغير ومالبت أفكارها وسبحت فى خيالها ونسيت نفسها وخرجت به من الكوخ دون شعور منها ولكن إلى أين؟! سألت نفسها بعد خطوات قصيرة..

خرجت من الكوخ وتطلعت فى فضاء الله الواسع وسارت على غير هدى ثم أطرقت برهة ولم تلبث أن صرخت دون شعور. لقد تذكرته. سوف أذهب إليه. ربما لا يعلم عنى شيئاً إنه رفيق صباى وأنيس وحدتى فى صغرى ابن عمى (فالح) لقد أصبح رجلاً له شأن كبير لماله الكثير.. إن صلة القربى وعهد الصبي سيجعلانه يبالغ فى إكرامى إننى أعرف بيته جيداً فى القرية الأخرى بجانب تلك الحديقة الغناء..

وبدون تردد سارت مسرعة نحو داره فى القرية الأخرى ونسيت أنها مريضة. سارت تحمل أخاها.. وعشرات من الصور ترتسم فى مخيلتها. كيف سيقابلها؟! وماذا تقابل عتابه لها على عدم اخباره بحالها قبل الآن؟!

إنها تساؤلات وتساؤلات. لم تشعر معها إلا وهى أمام باب الدار لقد طرقت بسرعة واضطراب.. إنها مستعجلة متلهفة شاكية باكية. ولكنها القلوب إذا تحجرت صارت كالصخرة أو أشد.. أطل ابن عمها (فالح) ليراها ويعرفها حق المعرفة ولكنه قد تحجر قلبه ونفض يده منها وتنكر لها بل وسبها سباً مقذعاً.. وحاولت (حياة) بعباراتها الساخنة وقلبها المكسور وفرائضها المرتعشة أن تعرفه بنفسها وتذكره بأيامها ولكنه تجاهلها وأغلق الباب فى وجهها فانتحرت آمالها على صخرة اليأس وعادت بحرقه وقلب مكسور والدنيا بأكملها قد صغرت فى عينيها.. عادت بالبكاء والدموع المنهمرة وفى طريقها على بعد خطوات من دار (فالح) يقابلها ذلك الشيخ الوقور الشهم.. إنه الشيخ جابر صديق أبيها وجاره منذ القدم.. لقد عرف لتوه قصتها كاملة وشاهد ذلك الموقف المخزى من (فالح) فشارت نخوته على فقره هو الآخر وأقسم عليها أن تعود لدارها مرة أخرى وأن لا تخرج منه وأقسم أن يتكفل بكل ماتحتاجه مما يقدر عليه وينفق منه أبناءه.. انها لم تصدق ماتسمع.. إن هذا القول يعنى أنها لن تخدم النساء

مرة أخرى.. كم هى فرحة بهذا؟! وكم هم أولئك الناس الذين يعرفون الخير ويحفظون بالمعروف؟!!

لقد شعرت أن نفحة من الساء قد أحاطتها واستجاب الله دعاءها فعادت إلى كوخها الذى ترى فيه حنان أبيها وعطف أمها. وترى فيه آمالاً كبيرة لهذا الصغير الذى تحمله.. عادت إلى كوخها الذى رأت أن بصيصاً من السعادة قد دخله بمرور الشيخ جابر يوماً متفقداً وسائلاً فى طيبة متناهية ورجولة وإيمان عميق.

وتمر أيام وأيام ويأتى الشيخ جابر ذات مساء وهو يعد حبات مسبحة الطويلة مبتسماً.. أدركت (حياة) أن ابتسامته تلك خلفها أشياء وأشياء. فاستقبلته بعد أن وقر فى نفسها أبوتها لها ورعايته وحرصه عليها.. استقبلته ببشر وسرور وتعلق أخوها بهذا الرجل الطيب وصار يناديه.. بابا.. بابا..

نعم لقد دخل عليها الشيخ جابر بمسبحة الطويلة ولحيته الكثيفة وهو يدعو ويتمتم فترة من الزمن ثم أسر إلى حياة أمر تقدم أحد الفتيان لخطبتها.. إنه فتى من خيرة فتيان الحى اختاره لها ليكون زوجاً.. لم ترد (حياة) بكلمة إلا قولها بعد استحياء وخجل: (ما تختاره لى فهو خير) ولم تمض أيام حتى زفت حياة إلى بيت الزوجية بسعادة غامرة وفرح كبير.

وعاشت فى بيتها السعيد محبة لزوجها راعية لأخيها الذى قد أدخلته المدرسة.. وفى كل يوم تدعو من أعماقها للعلم (جابر) بالتوفيق والمغفرة لأنه قدم لها الدنيا بقلبه الطيب وكلماته الوقورة وشهامته الفذة ورجولته النادرة..

وتظل السعادة بيتها ويعيش الحب مع أفرادها.. إنها الحياة السعيدة تعيشها (حياة) فى هذه الدارين حب زوج طيب وعطف شيخ جليل وابتسامات طفل برىء..

لقد ذهب الشتاء وجاء الصيف بشمس اللافحة وفى الهجير من أحد أيامه سمعت (حياة) على بابها طرقات سائل.. إنه سائل محروم ترن طرقاته شغاف قلبها..

ولم لا؟! إنها تجرعت مرارة التسكع وهوان الحرمان وذل المسألة.. أسرعت إلى الباب وفتحته.. ويالذهولها وياالشدة دهشتها حينما فتحت الباب.. إنه (فالح) ابن عمها الذى طردها قبل سنوات.. مسكين قد تبدلت حاله وشحب وجهه ورثت ملابسه وخفت صوته وغارت عيناه ونخل جسمه إنه فالح بعينه عرفته حق المعرفة مع أنه لم يعرفها.. لقد تبددت ثروته والتمتها النيران وطالبه الدائنون فتشرد من مطاردتهم بعد أن تركه الأصدقاء وتكر له الأخلاء.. فعاش حياة الذل والهوان وبدأ يتشبث بكل من له بهم صلة وعرف أن (حياة) تعيش فى هذه القرية ولكنه لم يعرف بيتها وأنه يبحث عنها لعلها تخفف وتهدىء روعه وتعيد إليه نسمة الحياة من جديد..

وقف (فالح) على الباب يسأل عن (حياة) لأنه لم يعرفها واستمرت فى وقفها معه تسائله عن حاجته فقص عليها القصة كاملة واستمعت إليها بإنصات واهتمام.. فأدخلته إلى الدار وبالغت فى إكرامه وأخذت تلح عليه فى السؤال وهو يحدثها وفجأة أحس بأمر جعله يسأل هذه المرأة ما سبب اهتمامها به وإلحاحها فى سؤاله؟! هل تعرف شيئاً عنه؟!

لقد سألها بإلحاح عن اسمها وأصر على ذلك ليحتفظ لها بمعروفها فى ملاطفته ويشكر لها اهتمامها به.. وترددت (حياة) عن الإفصاح له بالحقيقة ولكنه يصر.. ويصر فتترقق دموعها وتجهش بالبكاء وتعجز عن الكلام لأنها تذكرت حياتها السابقة وموقفه معها فلم تستطع أن تنطق ببنت شفة وهو يحرق فيها وتمد يدها إلى موقد نار أمامها وتكتب اسمها بحروف مقطعة فى الرماد.

هفتم و دهم

همس ودموع

كان الليل قد ضرب أظنابه على الكون وفى وسط ظلامه البهيم أطل القمر باسمًا للطبيعة بأشعتها الذهبية الرقيقة ومع إطلالته التفتت زهرة وقد ولى شبابها واصفر عودها وذبلت أوراقها وتناثر عقد جيدها... التفتت إلى ابنتها المتأنقة الباسمة حولها تناجيها قائلة:

أبنيقى .. هاأنا قد خلقتك بعدى فى هذا الوقت أرى السعادة تغمرنى والطرب يهز مشاعرى بعد أن ملأت مقلتى بمرآك البديع وأنت تستقبلين الحياة.. فكم تمنيت على الله أن أراك قبل أن تعزلنى الطبيعة وأفارق هذا الكون لأمنحك خلاصة حياتى وليرفرف طير السلام بجناحيه حولك لتذوقى لذة الحياة.. نعم كم ابتهلت إلى الله فى غسق كل فجر ومع بادرة كل يوم أن أراك وقد اشتد ساعدك يحسبك عالم الأزهار من بين موجوداته تشاركينه أفراحه وأتراحه لتجودى بنفحة عطرة تسير مع النسيم يحس بها بنو البشر فتحصلى على عظيم تقديرهم وجميل ثنائهم..

بنيتى .. الحب فى هذه الحياة ربيع القلوب به تنعم الأفئدة وعليه تتسلق إلى ماتوئل من خير وطمأنينة وأمان... أنظرى إلى العش فى أعلا هذه الشجرة وانظرى إلى ذلك الكوخ الصغير ثم التفتى إلى نخلتين فى يمينك كيف تقبلان تلك الزهرة الشابة المتأنقة وأخيراً انظرى بجانبك لولا الحب لما اجتمع الطائران فى عشهما.. ولما بنى الفلاح كوخه لزوجته وأطفاله.. ولما حنت النحلتان على جارتك بالقبلات المتتالية.. ولما وقفت أنا بجانبك وقفى هذه... فاجعلي الحب شعارك واتخذه قاعدة لتعيشى عيشة السعداء.... حبي النسيم عند مروره وانهالى عليه بقبلات متتالية.. وعطرى الجو من حولك تحظين بعناية هذا الفلاح المسكين.. لا تبخلى عليه بعطرك الفواح فلقد وجدت منه كل محبة وإخلاص ووفاء. بنيتى.. لا تبخلى على من مر بك من أبناء آدم وبنات حواء بابتساماتك الطاهرة الزكية. ابعثى فيها الإحساس

بالجمال ونفى بينها الافتنان بسحره فى كل ما يرون أو يسمعون.. أشعرهم بأن السعادة ليست فيما يعتقدون من كثرة المال وتعدد مصادره بل السعادة الحققة نحن معشر الأزهار نعيشها بحبنا وطهارة نفوسنا وبراءتنا لانخذ على أحد مها اشد الأذى وعظمت المصيبة يعطر شذى وحدتنا عندما يحرمها لذة الحياة بالقطف ففسير وقد أحاطت رائحتها الزكية به إحاطة السوار بالزند... قابلى الإساءة بالإحسان دائماً كما هو معروف عنا.. ولا تنسى إيمانك بخالقك فى كل حين...

أبنتى.. إن لتغريد العصافير علينا أكبر دليل على براءتها وحبها للحياة وفرحتها بنا فإذا ماحلق عصفور على ورقك تمايلى طرباً لتشعريه أنه حى به تحمل الطبيعة وتظهر مفاتها ارقصي به كأنما هو الطبيعة من حولك بعينها فإذا ماغنى وبدأ رقص الأزهار فى كل ناحية بشره بقدوم الربيع وعلميه كيف يتعامل مع أزهاره المقبلة.. وحذار أن يطغى ذلك على حبك وإعجابك وتمايلك لهبات النسيم التى هى فى الواقع جمالنا ومصدر حياتنا.. اذكرى دائماً جميل صنع النسيم علينا حينما يجود فى السحر بيد خفية بقطرات الندى التى تشكل تيجاناً على رؤوسنا نعز بها ونفتخر ويزداد تألقاً ونشاطاً بين حين وآخر.. وإياك أن يمر النسيم بساحتك وتطول وقفتك أمامه.. وأخيراً ماإيمانك بالحب لكل ماذكرت سوى مصدر الحياة أفضل لك وعصارة للتجارب التى مررت بها فى هذه الحياة لأشقى وتسعدى بعدى بها.. والآن يا صغيرتى صلى من أعماق قلبك بأن يعم الحب أرجاء المعمورة فلا بغضاء ولا كراهية ولا عدوان ولا احتقار.. وأجدنى هنا يا صغيرتى قد ودعت الدنيا وملأت ناظرى بمرآك الذى طالما تمنيته.. وقد تركت فيك ولك منظار الحياة الجميل وأوردت لك الحب بكل شىء فى الطبيعة من حولك... فوداعاً مع الغسق قبل الهجير...

1725

الحصاد

لله درك من بطل موفق .. لله درك من ابن بار.. لله درك من رجل حياة..
بالأمس يابني كنت تسير فى الظلال وتعيش فى الزوايا على حصباء من رمل أحمر
يلتهب.. يحرق هناك فى الأرض البعيدة. وقفت أقدامك عن السير وتسمرت عيناك
فى حلقة معمة.. لا تبصر منها.. اختلطت الأضواء.. وضاعت الحدق.. تعودت عيناك
على شمس ساطعة ولدت فيها فلامست أشعتها الفضية جسمك فى كل ذرة فيه..
ويومها ناغيت القمر وقلت الشمس ورتبت على أكتاف أطفال الحى تمازحهم
بابتسامتك الجملة التى يسيل رقة وعذوبة وتفتح الآمال إلى الحياة.. إلى الحياة من
جديد..

قالت هذا وهى تنظر إلى ابنها عائداً من غربته الطويلة.. قالت هذا ودموعها
تسيل كحبات اللؤلؤ على وجنتين مقرحتين وجسم ناحل منك أتعبته السنون وبوائق
الأيام ومصائبها... تغمض عينيها.. تستعيد ذكريات الشفاء والبؤس والفاقة والمرض..
تذكرت يوم أن فارقها ويدها تلوحان لها... سأعود يا أماه... سأعود... سأعود..
لقد فارقها لا مجرد أن يذهب ويبتعد.. بل ليعود وفى يديه حبات القمح يزرعها على
صخور الصحراء الصلدة.

كانت يده يوم أن فارقها ترتعش كريشة فى مهب الريح.. وكعصى قد هوت
فى وادٍ سحيق بابتسامة مضمخة بالحب وألم الفراق والحرمان معاً... خيال يلوح من
بعيد وصوت فى أعماق الأعماق.. وصدى أختلط بصخور الصحراء يلف الهواء

• اشترك المؤلف بهذه القصة فى ملتقى القاصين الشباب بمهرجان الشباب العربى الخامس الذى عقد بدمشق فى الفترة
من ١٤٠١/١٠/٢٠ هـ إلى ١٤٠١/١٠/٢٧ هـ.

كالأعصار فيصطدم بالأذان والأفئدة وداعاً.. وداعاً.. وإلى لقاء قريب بكل الآمال والأحلام...

إنها سنوات مرت على الأم الحزينة الباكية.. سنوات بلا أحلام.. بلا هدف.. بلا حياة.. بلا آمال اختلطت فيها كل القيم والمثل والمبادئ..

رأت فيها عنصرة قد أتى بحصانه فى بنى عبس... أنا عنصرة بن شداد.. أنا العبسى.. واستيقظ امرؤ القيس... وتدرج رأس كليب بن مرة... وصاح جساس وأتى المهلهل... وندبت جليلة حظها وبكت زوجها وأخاها...

وبدأ بنو هلال يعيشون تغريبة جديدة... وذهب أبو زيد فى رحلة طويلة يبحث عن نقطة ماء فى صحراء قاحلة يروى بها عطشه ومالبث أن عاد بلا لجام لفرسه فصاح فى أعلا الوادى: اقطعوا الأشجار واحملوا الجبال عن هذه الصحراء حتى تجدوا لجام الفرس... وفى أسفل الوادى أتى جرير بدفاته... والأخطل بحقيته والمتنبى بقلمه والفرزدق بعصاه... كل يريد أن يتكلم فلا يستطيع... كل يريد أن يلوح فلا يقدر... لقد ماتت الأحاسيس.. وتبلدت المشاعر.. وتجمدت الكلمات...

ياإلهى وهذا قيس تنكر لليلى العامرية... وبصق جميل فى وجه بثينة... وحفرت عبلة قبر عنصرة لتشعل فيه النار... اهتزت الأشجار وتطايرت الأوراق تقطر دماً.. تحولت الرمال إلى رماد وهبت الريح فقامت أعاصير وسالت أنهار من دم فى أودية مسطحة.. وبحث الناس عن الماء فلم يجدوه...

وتنحني أبو الأسود الدؤلى وقال فى العربية كلاماً لم يسمعه أحد لأن الناس بلا أذان... وتحدث سيبويه فى سوق عكاظ فى خيمة اقتلعتها الريح فذهب ولم يعد... وأتى الإمام إلى المسجد لينادى (حيعل الصلاة) فإذا الناس يحلبون الحجر... وإذا امرأة تطوف بنخلة تقول: (يافحل الفحول امنحنى زوجال قبل الحول)... وإذا طفل يسأل الناس بقدحه ليبصقوا فيه كى تشفى أمه وتعود إلى أبيه....

ياإلهى قالت الأم الرؤوم.. أين الخلاص؟.. أين الخلاص؟.. لقد مسخت الحياة

كل شىء فيه قد تبدل.. والضحك.. البكاء.. النحيب.. النوق بلا ضروع...
والخيل بلا قوائم.. صارت الحياة مسخاً فى كل شىء... مسخاً فى كل معنى من
معانيها... وأجهشت الأم بالبكاء وأدخلت رأسها فى كوة ركن معتم تصيح
وتنتحب... تحجرت كلماتها... ييست دموعها.. ذهبت فى عالم السنون المضطربة...

أما لهذا الليل من آخر؟... أما آن للفجر أن يرسل تابشيريه على الكون؟...

وفجأة تسمع الصوت... صوت يرن فى أذنها.. أماه.. أماه.. هاأنذا قد أتيت..
أتيتك يا أماه.. انظرى.. التفتى.. أتيتك على حصانى الأبيض... انظرى مئذنة
المسجد تبتسم... وحماته تطوف... لقد أسرجت ضياءها بيدى هذه... وغرست
نخلتنا وهذه ثمارها الذهبية...

وصالحت بن عبس وذبيان وأقيمت الأفراح فى دار بكر وتغلب.. وقبل عدنان
قحطان.. وربطت حصان عنترة.. وسلمت أبا زيد لجام فرسه.. ومدح جرير
الفرزدق وكف الخطيئة عن الهجاء وقال المتنبي فى القلم والسيف قوله...

أما قيس فقد رجع إلى ليلى العامرية... ومسح جيل بصقته فى وجه بثينة
وأطفأت عبله النار عن قبر عنترة وعادت لحبها له من جديد... وفهم الناس كلام
أبى الأسود... ورست خيمة سيويه...

انظرى يا أماه... إلى الأوراق... إلى الأزهار التى غرستها كيف تعيش فى
عرس وهجة منظر...

انظرى إلى أنهار الذهب من تحتك تجرى.. وأنهار الماء بين يديك تسير...

انظرى إلى أشجار النخيل والليمون قد نبئت على تلك الصخور الصلدة.

انظرى إلى أطفال الحى يرحون... إلى النساء يرقصن... إلى الرجال يهزجون...
لقد أعيدت السيوف إلى أغمادها... ورجعت الخيل إلى قوائمها.. وارتسمت على
الشفاه ضحكاتهما...

إنه الحب يا أمّاه.. وليس شيء غيره زرعتَه في صحرائنا فعادت لها بهجتها
ونضارتها وبدأت حياتها من جديد.



الفهرس

رقم الصفحة	عنوان القصة
٥	تقديم
٩	المقدمة
١٣	المدينة الخالدة
٢٥	وحج رسول الله
٣٧	رجال الإيمان
٤٩	النشيد الخالد
٦١	طريق السعادة
٦٩	الوفاء
٨٥	أستاذ الجيل
٩٥	عشرون عاماً في الانتظار
١٠٣	يوم العيد
١١١	نافذة الضياع
١١٩	أمنية وقدر
١٣٣	المعطف المشثوم
١٤٣	عذاب الضمير
١٤٧	حروف في الرماد
١٥٣	همس ودموع
١٥٧	الحصاد
١٦٣	الفهرس

مطابع الفرزدق التجارية
تلفون ٤٧٨٨٥١٠ المزر